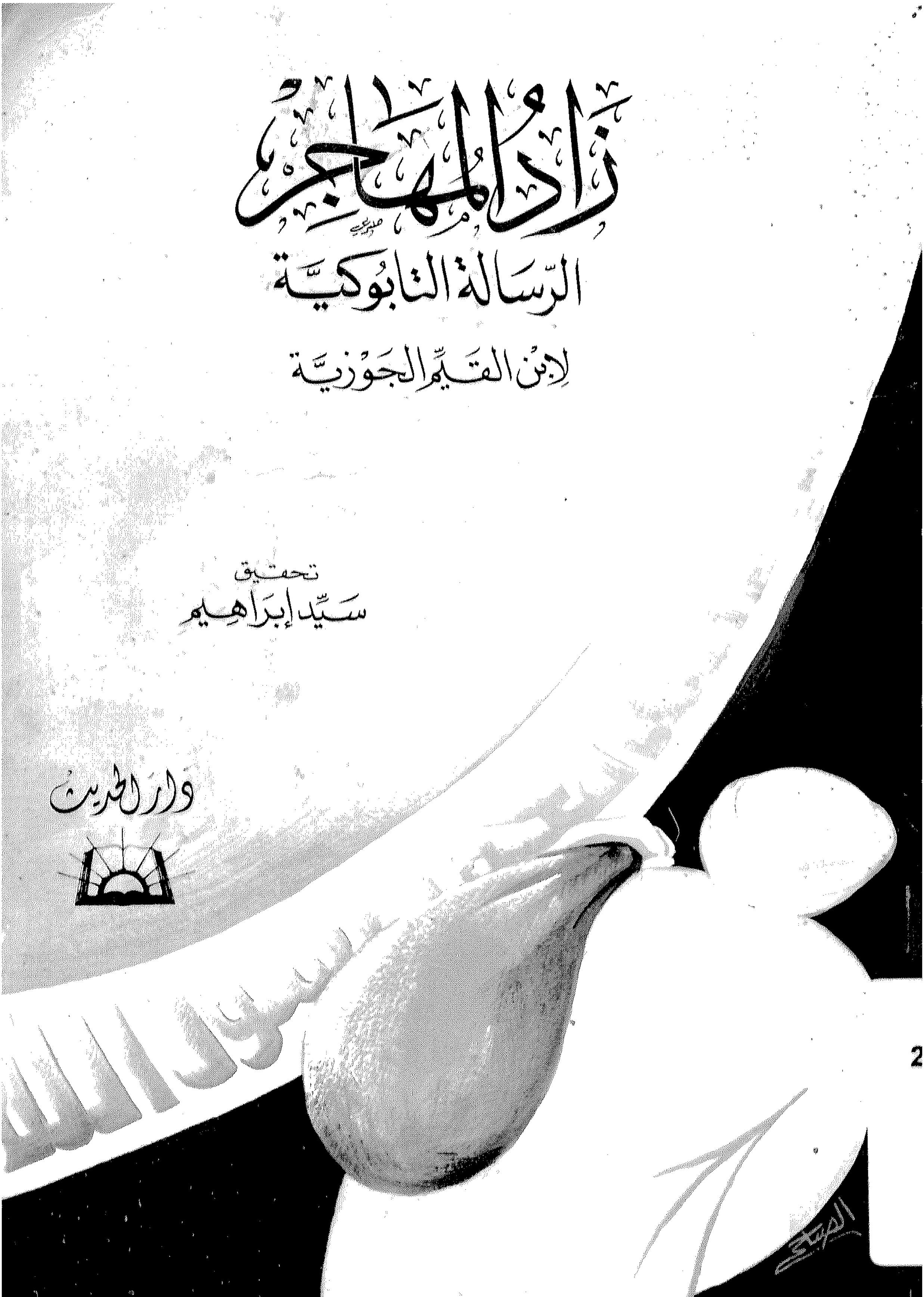


زاد المهاجر

الرسالة التبوكية

لابن القيم الجوزية

تحقيق

سيد إبراهيم

دار الحديث

زاد المهاجر

الرسالة التابوكية

٦٩١ - ٧٥١ هـ

تحقيق وتعليق

ابو حفص

سيد ابراهيم صادق

دار الحديث

طبع . نشر . توزيع

إدارة ومكتبة ١٤٠ شارع جوهر القائد - أمام جامعة الأزهر
تليفون ٩١٩٦٩٧ ٩١٨٧١٩ - ٩٢٦٥٠٨ تلكس ٩٢٩٨٥ - ٢٣١٦٣ كايروسيتي

« بسم الله الرحمن الرحيم »

« تقديـم »

ان الحمد لله نحمـده ونستعينـه ونستغفره ونستهـديـه ونعوذ بـالله من شرور انفسنـا وسيئـات أعمالنا من يهديه الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له .

وأشهد ان لا إله إلا الله وحده لا شريك له .

وأشهد ان محمداً عبده ورسوله « ﷺ »

« اما بعد »

هذه هى الرسالـة التبوكيـة لابن قيم الجوزيـة رحمـه الله تعـالى فهى رسـالـة قيمـة على صغر حجمها ولكن فيها فوائد علمية جمة عرف من خلالها الفرق بين البر والتقوى وما بينهما من عموم وخصوص ثم انتقل إلى مفهوم العلم النـافع والعـالم الحق وعرّف الاثم والعـدوان والعلاقـة التى بين العبد وربه ثم الهجرة الحقيقية التى ينبغى لكل مسلم ان يهاجرها ومـا هو مبـدأهـا ومنتهـاهـا ثم تطرق إلى كيفيـة الفرار من الله ثم انتقـل مرة أخرى الى نـوعى الهجرة فجعـل الأولى الهجرة العارضة والثانية الهجرة العارضة .

وتناول هؤلاء الذين يتمسكون بكلام مذاهبهم وطوائفهم وفرقهم مخالفين بذلك الحق وأتباعـه جهلاً منهم أو تعصباً لمذاهبهم وفرقهم وكأنـه يعيش بيننـا حيث نجـد بعض المتعصبين لفرقهم أو مذاهبهم يروون الأحاديث الصحيحة والنقول السليمة من اهل السلف وعلماء الأمـة لأن كلامهم يخالف مذهبه ورأيه ان كان من اصحاب الرأى الذين ابتلينا بهم فى هـذا الوقت وتنـاول المؤلف موقف الأئمة من السُّنة وعلقنا عليه ببحث لشيخنا الألبانى والرسالة على كل حال مليئة بالفوائـد والأعاجيب فتراه فيها مفكراً بـارعـاً ومفسراً عظيمـاً يجول بين الآيـات ويصول ويستخرج منهـا العبر والعظات ومعانى واسرار لم يسبقه اليه أحد فرحم الله ابن القيم رحمة واسعة . ولقـد طبعت هذه الرسالة من قبل بتقديم الدكتور الفاضل ، محمد جميل غازى قـدمهـا فى قـالب جيـد ومنظم وهى التى اعتمدت عليها فى التحقيق فكان عملى فيها كالآتى :

١ - تخريج بعض الآيات التى تركها الدكتور رحمه الله تعالى

٢ - قمت بتخريج الأحاديث التى فى الرسـالـه وعزوهـا الى مصـادرهـا فى كتب السنـه مع تبيين درجة الحديث من صحة أو ضعف .

٣ - ترجمة بعض الأعلام فى الرساله

٤ - ترجمه معنى الكلمات الغريبة فى الرسالة

٥ - التعليق على بعض النصوص احياناً

واخيراً اسأل المولى الكريم ان يجعل هذا العمل فى ميزان حسناتى يوم لا ينفع مال ولا بنون .

وكتب ابو حفص

سيد ابراهيم صادق عمران

المنيا / كفر المنصورة

فى ١١ من المحرم سنة ١٤١١ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين وعليه نتوكل

قال الشيخ الإمام العالم العلامة محمد بن أبى بكر ، المعروف بابن قيم الجوزية رضى الله عنه وأرضاه – فى كتابه الذى سيره من تبوك[1] ثامن المحرم سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة – بعد كلام له سبق :

أحمد الله بمحامده التى هو لها أهل ، والصلاة والسلام على خاتم رسله وأنبيائه : محمد ﷺ .

وبعد :

فإن الله سبحانه وتعالى يقول فى كتابه : ﴿ **وَتَعَاوَنُوا عَلَى البِرِّ والتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ، وَاتَّقُوا اللهَ ، إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ** ﴾ [المائدة : ٢] .

● وقد اشتملت هذه الآية على جميع مصالح العباد فى معاشهم ومعادهم ، فيما بينهم بعضهم بعضاً ، وفيما بينهم وبين ربهم ، فإن كل عبد لا ينفك[2] عن هاتين الحالتين ، وهذين الواجبين : واجب بينه وبين الله ، وواجب بينه وبين الخلق .

فأما ما بينه وبين الخلق : من المعاشرة والمعاونة والصحبة ، فالواجب عليه فيها أن يكون اجتماعه بهم ، وصحبته لهم ، تعاوناً على مرضاة الله وطاعته ، التى هى غاية سعادة العبد وفلاحه ولا سعادة له إلا بها ، وهى البر والتقوى ، اللذان هما جماع الدين كله ، وإذا أفرد كل واحد من الاسمين دخل فى مسمى الآخر ، إما تضمناً ، وإما لزوماً ، ودخوله فيه تضمناً أظهر ؛ لأن البر جزء مسمى التقوى ، وكذلك التقوى ، فإنه جزء مسمى البر . وكون أحدهما لا يدخل فى الآخر عند الاقتران لا يدل على أنه لا يدخل فيه عند انفراد الآخر .

● ونظير هذا : لفظ « الإيمان والإسلام » و « الإيمان والعمل الصالح » و « الفقير والمسكين » و « الفسوق والعصيان » و « المنكر والفاحشة » ونظائره كثيرة .

● وهذه قاعدة جليلة من أحاط بها زالت عنه إشكالات كثيرة أشكلت على كثير من الناس .

---

(١) نسبة إلى قرية « تبوك » على حدود الحجاز من جهة الشام

(٢) لا ينفك : لا ينفصل

البـر والتقـوى :

ولنذكر من هذا مثالا واحداً يستدل به على غيره ، وهو البر والتقوى .

فإن حقيقـة البر : هو الكمـال المطلوب من الشيء والمنـافع التى فيـه والخير ، كما يـدل عليـه اشتقاق هذه اللفظة وتصاريفها فى الكلام .

ومنه « البر » بالضم لمنافعه وخيره بالإضافة إلى سائر الحبوب .

ومنه رجل بار ، وبر ، وكرام بررة ، والأبرار .

فالبر : كلمة جامعة لجميع أنواع الخير والكمال والمطلوب من العبد . وفى مقـابلتـه الإثم . وفى حديث النواس بن سمعان أن النبى ﷺ قال له : « جئت تسأل عن البر والإثم »[٣] .

فالإثم كلمة جامعة للشرور والعيوب التى يذم العبد عليها .

فيدخل فى مسمى البر : الإيمان وأجزاؤه الظاهرة والباطنة ، ولا ريب أن التقوى جزء هـذا المعنى . وأكثر ما يعبر عن بر القلب ، وهو وجود طعم الإيمان فيـه وحلاوتـه ، ومـا يلزم ذلـك

---

(٣) حديث « حئت تسأل عن البر والإثم .. »

(قلت) حـديث الـواس بن سمعـان ليس فيـه هـذا اللفـظ الـدى دكره المصنفـ رحمـه الله وانمـا هـو عنـد مسلم من طريقين

(الأول) من طريق ابن مهـدى عن معـاويـة بن صـالح عن عبـد الرحمن بن جبير بن نفير عن أبيـه ، عن النـواس بن سمعـان الانصـارى . قـال : سـألت رسـول الله ﷺ عن البر والإثم ؟ فقـال « البر حسن الخلق والإثم مـاحـاك فى صـدرك ، وكرهت أن يطلع عليه الناس .

(الثانى) من طريق عبد الله بن وهب . حدثنى معاوية (يعنى ابن صالح) عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير ، عن أبيه ، عن نواس بن سمعان . قال : أقمت مع رسول الله ﷺ بالمدينة سنة . ما يمنعنى من الهجرة إلا المسألة كان أحدنا إذا هـاجر لم يسأل رسول الله ﷺ عن شئ . قال فسألته عن البر والاثم ؟ فقال رسول الله ﷺ « ... الحديث ... » صحيح مسلم فى كتاب « البر والصلة » باب « تفسير البر والاثم » (حـ ٤ / ١٤ ، ١٥ / ح ٢٥٥٢ / ص ١٩٨٠) والترمذى فى كتـاب « الزهد » باب « ما جاء فى البر والاثم » (حـ ٤ / ٢٣٨٩) واحمد فى « مسنده » (٤ / ١٨٢ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨) والـدارمى (حـ ٢ / ح ٢٧٨٩ / ريان) والحاكم فى « المستدرك » (٢ / ١٤) وقال . حديث صحيح الاسـناد ولم يخرجـاه ووافقـه الذهبى وقال الحاكم . ولم يخرجاه (قلت) بل أخرجه مسلم كما اثبته فى أول الحديث (قلت) واما اللفظ الـذى ذكره المصنف « جئت تسـأل عن البر والاثم » فهو عند الـدارمى (حـ ٢ / ح ٢٥٣٣ / ريـان) من حـديث وابصـة وذكره الهيثمى فى « مجمع الزوائد » (١ / ١٧٥) من طريقين .

(الأول) قال فيه · رواه أحمد والبزار وفيه أبو عبد الله السلمى وقال فى البزار الاسدى عن وابصة وعنه معـاويـة بن صـالح ولم أجد من ترجمه .

(الثانى) قال فيه : رواه أحمد وابو يعلى وفيـه أيوب بن عبـد الله بن مكرز قـال ابن عـدى لا يتـابع على حـديثـه ووثقـه ابن حبان . ا . هـ .

من طمأنينته وسلامته ، وانشراحه وقوته ، وفرحه بالإيمان . فإن للإيمان فرحة وحلاوة ولذة فى القلب ، فمن لم يجدها فهو فاقد الإيمان أو ناقصه . وهو من القسم الذين قال الله عز وجل فيهم : ﴿ قَالَتِ ٱلأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٤] .

فهؤلاء – على أصح القولين – مسلمون غير منافقين وليسوا بمؤمنين ؛ إذ لم يدخل الإيمان فى قلوبهم فيباشرها حقيقة .

● وقد جمع الله خصال البر فى قوله تعالى : ﴿ ليس البرَّ أن تُوَلُّوا وُجوهَكم قِبَلَ المشرقِ والمغربِ ولكنَّ البرَّ مَن آمنَ باللهِ واليومِ الآخرِ والملائكةِ والكتابِ والنبيِّينَ وآتى المالَ على حُبِّهِ ذوى القُرْبى واليتامَى والمساكينَ وابنَ السبيلِ والسائِلينَ وفى الرقابِ وأقامَ الصَّلاَةَ وآتَى الزَّكَاةَ والمُوفُونَ بعَهْدِهِمْ إذا عاهدُوا وَالصَّابرينَ فى البأساءِ والضَّراءِ وَحِينَ البأسِ ، أولئكَ الذين صدَقُوا وأُولئكَ هُمُ المُتَّقُونَ ﴾ [البقرة : ١٧٧]

● فأخبر سبحانه أن البر هو الإيمان بالله وبملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وهذه هى أصول الإيمان الخمس التى لا قوام للإيمان إلا بها .[٤]

وأنها الشرائع الظاهرة : من إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والنفقات الواجبة .

وأنها الأعمال القلبية التى هى حقائقه ، من الصبر والوفاء بالعهد فتناولت هذه الخصال جميع أقسام الدين ، حقائقه وشرائعه والأعمال المتعلقة بالجوارح والقلب ، وأصول الإيمان الخمس ، ثم أخبر سبحانه عن هذه أنها هى خصال التقوى بعينها فقال ﴿ أُولئكَ الذينَ صدَقوا وأُولئكَ همُ المُتَّقُونَ ﴾ . [البقرة : ١٧٧] .

التقــوى :

● وأما « التقوى » فحقيقتها العمل بطاعة الله إيماناً واحتساباً ، أمراً ونهياً ، فيفعل ما أمر

---

(٤) وذلك قول الله تعالى « ليْسَ البِرَّ أن تُولُّوا وُجُوهَكُم قِبَلَ المشرق والمَغربِ ولكنَّ البرَّ مَن ءَامَنَ بِاللهِ والْيوم الآخِرِ والملائكة والكتَاب والنَّبيين وءَاتى المالَ على حُبِّهِ ذَوى القربَى ... الآيه

(سورة البقرة / ١٧٧)

وجاء فى « الصحيح » عند مسلم فى كتاب « الايمان » باب « بيان الإيمان والإسلام والإحسان » (ح ١ / ٥ / ح ٩ /) من حديث ابى هريرة وهو سؤال جبريل للنبى ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان والساعه وجاء فيه ما الإيمان ؟ قال : ان تؤمن بالله وملائكته وكتابه ولقائه ورسله وتؤمن بالبعث الآخر ... الحديث .

الله به إيماناً بالأمر وتصديقاً بوعده ، ويترك ما نهى الله عنه إيماناً بالنهى وخوفاً من وعيده .

كما قال طلق بن حبيب[٥] : « إذا وقعت الفتنة فاطفئوها بالتقوى ، قالوا : وما التقوى ؟ قال : أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ، ترجو ثواب الله ، وأن تترك معصية الله على نور من الله ، تخاف عقاب الله » .

● وهذا من أحسن ما قيل فى حد التقوى .[٦]

فإن كل عمل لابد له من مبدأ وغاية ، فلا يكون العمل طاعة وقربة حتى يكون مصدره عن الإيمان ، فيكون الباعث عليه هو الإيمان المحض ، لا العادة ولا الهوى ولا طلب المحمدة والجاه وغير ذلك ، بل لابد أن يكون مبدؤه محض الإيمان ، وغايته ثواب الله وابتغاء مرضاته وهو الاحتساب .

ولهذا كثيراً ما يقرن بين هذين الأصلين فى مثل قول النبى ﷺ : « من صام رمضان إيماناً واحتساباً » و « ومن قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً »[٧] ونظائره .

فقوله « على نور من الله » إشارة إلى الأصل الأول وهو الإيمان الذى هو مصدر العمل والسبب الباعث عليه .

وقوله « ترجو ثواب الله » إشارة إلى الأصل الثانى وهو الاحتساب ، وهو الغاية التى لأجلها يوقع العمل ، ولها يقصد به .

---

(٥) هو طلق بن حبيب العنزى ، بصرى ، صدوق عابد ، رُمِىَ بالارجاء مات بعد التسعين .

(تقريب التهذيب ١ / ٣٨٠)

(٦) قال ابن قيم الجوريه فى كتابه العظيم « الفوائد » :-

ودع ابن عون رجلاً فقال عليك بتقوى الله فإن المتقى ليست عليه وحشة .

وقال سليمان بن داود :- أوتينا مما أوتى الناس ومما لم يؤتوا وعلمنا مما علم الناس ومما لم يعلموا فلم نجد شيئاً أفضل من تقوى الله فى السر والعلانية ، والعدل فى الغضب والرضا : والقصد فى الفقر والغنى .

« أنظر الفوائد بتحقيقنا »

(٧) قلت الحديث ورد مفصلاً ومتصلاً وسأذكر الحديث الذى ذكره المصنف متصلاً .. اخرج البخارى فى كتاب « فصل ليلة القدر » باب « فصل ليلة القدر » (حـ ٤ / ح ٢٠١٤ / فتح) من حديث ابى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « من صام رمضان ايماناً وإحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه ومن قام ليلة القدر إيماناً وإحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه » .

ومسلم فى كتاب « صلاة المسافرين وقصرها » باب « الترغيب فى قيام رمضان وهو التراويح » (حـ ١ / ١٧٥ / ٧٦٠ / ص ٥٢٣) من حديث ابى هريرة .

(الحديث متفق عليه) .

ولا ريب أن هذا اسم لجميع أصول الإيمان وفروعه ، وأن البر داخل فى هذا المسمى .

وأما عند اقتران أحدهما بالآخر ، كقوله تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ﴾ [المائدة : ٢] ، فالفرق بينهما فرق بين السبب المقصود لغيره والغاية المقصودة لنفسها ، فإن البر مطلوب لذاته ؛ إذ هو كمال العبد وصلاحه الذى لا صلاح له بدونه كما تقدم .

وأما التقوى فهى الطريق الموصل إلى البر والوسيلة إليه ، ولفظها يدل على هذا . فإنه فعلى ، ومن وقى يقى ، وكان أصلها وقوى ، فقلبوا الواو تاء ، كما قالوا تراث من الوراثة ، وتجاه من الوجه ، وتخمة من الوخمة ، ونظائرها فلفظها دال على أنها من الوقاية ، فإن المتقى قد جعل بينه وبين النار وقاية ، والوقاية من باب دفع الضر ، فالتقوى والبر كالعافية والصحة .

العلم النافع :

● وهذا باب شريف ينتفع به انتفاعاً عظيما فى فهم ألفاظ القرآن ودلالته ، ومعرفة حدود ما أنزل الله على رسوله ، فإنه هو العلم النافع .

وقد ذم الله تعالى فى كتابه من ليس له علم بحدود ما أنزل الله على رسوله(٨) .

● فإن عدم العلم بذلك مستلزم مفسدتين عظيمتين .

إحداهما : أن يُدخل فى مسمى اللفظ ماليس منه ، فيحكم له بحكم المراد من اللفظ ، فيساوى بين ما فرق الله بينهما .

والثانية : أن يخرج من مسمى اللفظ بعض أفراده الداخلة تحته ، فيسلب عنه حكمه ، فيفرق بين ما جمع الله بينهما .

والذكى الفطن يتفطن لأفراد هذه القاعدة وأمثالها ، فيرى أن كثيراً من الاختلاف أو أكثره إنما ينشأ من هذا الموضع .

وتفصيل هذا لا يفى به كتاب ضخم .

---

(٨) وذلك قول الله تعالى ﴿ الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

(سورة التوبة / ٩٧)

ومن هذا لفظ : (الخمر) ، فإنه اسم شامل لكل مسكر ، فلا يجوز إخراج بعض المسكرات منه وينفى عنها حكمه .

وكذلك لفظ : (الميسر) وإخراج بعض أنواع القمار منه .

وكذلك لفظ : (النكاح) وإدخال ماليس بنكاح فى مسماه .

وكذلك لفظ : (الربا) وإخراج بعض أنواعه منه ، وإدخال ما ليس برباً فيه .

وكذلك لفظ : (الظلم والعدل) و (المعروف والمنكر) ونظائره أكثر من أن تحصى .

● والمقصود من اجتماع الناس وتعاشرهم : هو التعاون على البر والتقوى ، فيعين كل واحد صاحبه على ذلك علماً وعملا .

فإن العبد وحده لا يستقل بعلم ذلك ولا بالقدرة عليه : فاقتضت حكمة الرب سبحانه أن جعل النوع الإنسانى قائماً بعضه ببعضه ، معيناً بعضه لبعضه .

● ثم قال تعالى : ﴿ وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوانِ ﴾ [المائدة : ٢] .

و (الإثم والعدوان) فى جانب النهى نظير : (البر والتقوى) فى جانب الأمر .

والفرق بين الإثم والعدوان كالفرق ما بين محرم الجنس ومحرم القدر .

الإثـــم :

فالإثم ما كان حراماً لجنسه .

والعدوان ما حرم لزيادة فى قدره وتعدى ما أباح الله منه .

فالزنا والخمر والسرقة ونحوها . إثم .

ونكاح الخامسة واستيفاء المجنى عليه أكثر من حقه ونحوه : عدوان .

العـــدوان :

فالعدوان هو تعدى حدود الله التى قال فيها : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمونَ ﴾ [البقرة : ٢٢٩] .

وقال فى موضع آخر : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلا تَقْرَبُوهَا ﴾ [البقرة : ١٨٧] فنهى عن تعديها فى آية وعن قربانها فى آية . وهذا لأن حدوده سبحانه هى النهايات الفاصلة بين الحلال والحرام ، ونهاية الشئ تارة تدخل فيه فتكون منه ، وتارة لا تكون داخلة فيه فيكون لها حكم

المقابلة . فالاعتبار الأول نهى عن تعديها ، وبالاعتبار الثانى نهى عن قربانها .

فصـــل

ما بين العبد وربه

● فهذا حكم العبد فيا بينه وبين الناس ، وهو أن تكون مخالطته لهم تعاوناً على البر والتقوى ، علماً وعملا .

● وأما حاله فيا بينه وبين الله تعالى : فهو إيثار طاعته وتجنب معصيته ، وهو قوله تعالى : ﴿ واتَّقُوا الله ﴾ .

فأرشدت الآية إلى ذكر واجب العبد بينه وبين الخلق وواجبه بينه وبين الحق .

ولا يتم له أداء الواجب الأول إلا بعزل نفسه من الوسط ، والقيام بذلك لمحض النصيحة والإحسان ورعاية الأمر ، ولا يتم له أداء الواجب الثانى إلا بعزل الخلق من البين[9] ، والقيام له بالله إخلاصاً ومحبة وعبودية .

● فينبغى التفطن لهذه الدقيقة ، التى كل خلل يدخل على العبد فى أداء هذين الأمرين الواجبين إنما هو من عدم مراعاتها علماً وعملا . وهذا معنى قول الشيخ عبد القادر قدَّس الله روحه[10] « كن مع الحق بلا خلق ، ومع الخلق بلا نفس ، ومن لم يكن كذلك لم يزل فى تخبيط ولم يزل أمره فرطاً » .

والمقصود بهذه المقدمة ما بعدها .

فصـــل

فى الهجرة إلى الله ورسوله

● لما فصل عير السفر واستوطن المسافر دار الغربة وحيل بينه وبين مألوفاته وعوائده المتعلقة بالوطن ولوازمه : أحدث له ذلك نظراً فأجال فكره فى أهم ما يقطع به منازل السفر إلى الله وينفق فيه بقية عمره ، فأرشده من بيده الرشد إلى أن أهم شىء يقصده إنما هو الهجرة إلى

---

(٩) البين : فى كلام العرب جاء على وجهين : يكون البين الفرقة ويكون الوصل ، بان يبين بيناً وبينونه وهو من الأضداد وشاهد البين الوصل

، « لسان العرب ١٢ / ٦٢ »

(١٠)

الله ورسوله ، فإنها فرض عين على كل أحد فى كل وقت ، وأنه لا انفكاك لأحد عن وجوبها ، وهى مطلوب الله ومراده من العباد .

نوعا الهجرة

إذ الهجرة هجرتان :

هجرة بالجسم من بلد إلى بلد ، وهذه أحكامها معلومة ، وليس المراد الكلام فيها .

والهجرة الثانية : الهجرة بالقلب إلى الله ورسوله ، وهذه هى المقصودة هنا . وهذه الهجرة هى الهجرة الحقيقية وهى الأصل ، وهجرة الجسد تابعة لها(١١) .

مبدأ الهجرة ومنتهاها :

● وهى هجرة تتضمن (من) و (إلى) فيهاجر بقلبه من محبة غير الله إلى محبته .

ومن عبودية غيره إلى عبوديته .

ومن خوف غيره ورجائه والتوكل عليه ، إلى خوف الله ورجائه والتوكل عليه .

ومن دعاء غيره وسؤاله والخضوع له والذل والاستكانة له إلى دعائه ، وسؤاله والخضوع له والذل له والاستكانة له .

وهذا بعينه معنى الفرار إليه قال تعالى : ﴿ **ففِرُّوا إلى الله** ﴾ [الذاريات : ٥٠] .

والتوحيد المطلوب من العبد هو الفرار من الله إليه .

الفرار إلى الله :

● وتحت (من) و (إلى) فى هذا سر عظيم من أسرار التوحيد .

فإن الفرار إليه سبحانه يتضمن إفراده بالطلب والعبودية ولوازمها ، فهو متضمن لتوحيد الإلهية التى اتفقت عليها دعوة الرسل ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

---

(١١) أخرج البخارى فى كتاب « الايمان » باب « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » (حـ ١ / ١٠ / فتح) من حديث عبد الله بن عمرو بلفظ « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه »
قال ابن حجر فى الفتح : وهذه الهجرة ضربان : ظاهرة وباطنة . فالباطنة ترك ما تدعو اليه النفس الامارة بالسوء والشيطان ، والظاهرة الفرار بالدين من الفتن .

الفرار من الله :

● وأما الفرار منه إليه فهو متضمن لتوحيد الربوبية وإثبات القدر ، وأن كل مافى الكون من المكروه والمحذور الذى يفر منه العبد ، فإنما أوجبته مشيئة الله وحده ، فإنه ماشاء كان ووجب وجوده بمشيئته ، ومالم يشأ لم يكن ، وامتنع وجوده لعدم مشيئته . فإذا فر العبد إلى الله فإنما يفر من شيء إلى شيء واجد بمشيئة الله وقدره فهو فى الحقيقة فار من الله إليه .

● ومن تصور هذا حق تصوره فهم معنى قوله ﷺ : « وأعوذ بك منك »[١٢] .

وقوله « لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك »[١٣] فإنه ليس فى الوجود شيء يُفر منه ويستعاذ منه ، ويلتجأ منه ، إلا هو من الله خلقاً وإبداعاً .

فالفار والمستعيذ : فارٌ مما أوجده قدر الله ومشيئته إلى ما تقتضيه رحمته وبره ولطفه وإحسانه ، ففى الحقيقة هو هارب من الله إليه ، ومستعيذ بالله منه .

وتصور هذين الأمرين يوجب للعبد انقطاع تعلق قلبه عن غيره بالكلية خوفاً ورجاء ومحبة ، فإنه إذا علم أن الذى يفر منه ويستعيذ منه إنما هو بمشيئة الله وقدرته وخلقه لم يبق فى قلبه خوف من غير خالقه وموجده ، فتضمن ذلك إفراد الله وحده بالخوف والحب والرجاء ، ولو كان فراره مما لم يكن بمشيئة الله ولا قدرته ، لكان ذلك موجباً لخوفه منه ؛ مثل من يفر

---

(١٢) أخرج مسلم فى « صحيحه » كتاب « الصلاة » باب « ما يقال فى الركوع والسجود » (جـ ١ / ٢٢٢ / ح ٤٨٦ / ص ٣٥٢) من حديث ابى هريرة عن عائشة : قالت : فقدت رسول الله ﷺ ليلة من الفراش . فالتمسته . فوقعت يدى على بطن قدميه وهو فى المسجد . وهما منصوبتان وهو يقول : « اللهم اعوذ برضاك من سخطك . وبمعافاتك من عقوبتك . وأعوذ بك منك لا أحصى ثناء عليك انت كما اثنيت على نفسك » . وأخرجه الترمذى (جـ ٥ / ح ٣٤٩٣) وابو داود (جـ ١ / ح ٨٧٩) والنسائى (١ / ١٠٢) وابن ماجه (١ / ح ١١٧٩) من حديث على بن ابى طالب واحمد فى « مسنده » (١ / ٩٦ ، ١١٨ ، ١٥٠) من حديث على بن ابى طالب ، (٦ / ٥٨ ، ١ ، ٢) من حديث ابى هريرة عن عائشة رضى الله عنها ...

(١٣) أخرج البخارى فى كتاب « الوضوء » باب « فضل من بات على الوضوء » (جـ ١ / ح ٢٤٧) من حديث البراء بن عازب قال : قال النبى ﷺ « اذا اتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ، ثم اضطجع على شقك الايمن ثم قال . اللهم اسلمت وجهى اليك ، وفوضت أمرى اليك ، وألجأت ظهرى اليك ، رغبة ورهبة اليك ، لا ملجأ ولا منجا منك إلا اليك . اللهم امنت بكتابك الذى أنزلت ، وبنبيك الذى أرسلت فان مت من ليلتك فأنت على الفطرة . واجعلهن اخر ما تتكلم به » . قال : فرددتها على النبى ﷺ ، فلما بلغت « اللهم امنت بكتابك الذى أنزلت » قلت : ورسولك . قال « لا . وبنبيك الذى أرسلت » .

واخرجه مسلم فى كتاب « الذكر » باب « ما يقول عند النوم وأخذ المضجع » (جـ ٤ / ٥٦ / ح ٢٧١٠ / ص ٢٠٨١ ، ٢٠٨٢) من حديث البراء بن عازب وأخرجه ايضاً ابو داود والترمذى وابن ماجه والدارمى وأحمد فى المسند .

من مخلوق آخر أقدر منه ، فإنه فى حال فراره من الأول خائف منه حذراً ألاّ يكون الثانى يفيده منه ، بخلاف ما إذا كان الذى يفر إليه هو الذى قضى وقدّر وشاء ما يفر منه ، فإنه لا يبقى فى القلب التفات إلى غيره .

● فتفطّن إلى هذا السر العجيب فى قوله « أعوذ بك منك » و« لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك » فإن الناس قد ذكروا فى هذا أقوالا وقلّ من تعرَّض منهم لهذه النكتة التى هى لبّ الكلام ومقصوده . وبالله التوفيق .

الهجرة إلى الله :

● فتأمل كيف عاد الأمر كله إلى الفرار من الله إليه ؛ وهو معنى الهجرة إلى الله تعالى .

ولهذا قال النبى ﷺ : « المهاجر من هجر مانهى الله عنه »[١٤] ولهذا يقرن الله سبحانه بين الإيمان والهجرة فى غير موضع لتلازمهما واقتضاء أحدهما للآخر .

● والمقصود : أن الهجرة إلى الله تتضمن هجران ما يكرهه وإتيان ما يحبه ويرضاه ، وأصلها الحب والبغض ، فإن المهاجر من شىء لابد أن يكون ما هاجر إليه أحب مما هاجر منه ، فيؤثر أحب الأمرين إليه على الآخر . وإذا كان نفس العبد وهواه وشيطانه إنما يدعوانه إلى خلاف ما يحبه ويرضاه ، وقد بُلى بهؤلاء الثلاث ، فلا يزالون يدعونه إلى غير مرضاة ربه ، وداعى الإيمان يدعوه إلى مرضاة ربه ، فعليه فى كل وقت أن يهاجر إلى الله ، ولا ينفك فى هجرته إلى المات .

فصــل

الهجرة بين القوة والضعف

● وهذه الهجرة تقوى وتضعف بحسب داعى المحبة فى قلب العبد ، فإن كان الداعى أقوى كانت هذه الهجرة أقوى وأتم وأكمل . وإذا ضعف الداعى ضعفت الهجرة حتى لا يكاد يشعر بها علماً ، ولا يتحرك لها إرادة .

الهجرة العارضة :

● والذى يقضى منه العجب : أن المرء يوسع الكلام ويفرع المسائل فى الهجرة من دار

---

(١٤) سبق تخريجه برقم (١١)

وأيضاً هو عند ابى داود والنسائى وابن ماجه واحمد ... ،

الكفر إلى دار الإسلام . وفى الهجرة التى انقطعت بالفتح(١٥) ، وهذه هجرة عارضة ربما لا تتعلق به فى العمر أصلا .

الهجرة الدائمة :

● وأما هذه الهجرة التى هى واجبة على مدى الأنفاس ، فإنه لا يحصل فيها علماً ولا إرادة ، وما ذاك إلا للإعراض عما خلق له . والاشتغال بما لا ينجيه وحده عما لا ينجيه غيره . وهذا حال من عشت بصيرته وضعفت معرفته بمراتب العلوم والأعمال . والله المستعان وبالله التوفيق ، لا إله غيره ولا رب سواه .

فصــــل

فى الهجرة إلى رسول الله ﷺ

● وأما الهجرة إلى رسول الله ﷺ ، فعلم لم يبق منه سوى اسمه ، ومنهج لم تترك بنيّات الطريق سوى رسمه ، ومحجة سفت(١٦) عليها السوافى فطمست رسومها ، وغارت عليها الأعادى فغوّرت مناهلها وعيونها ، فسالكها غريب بين العباد ، فريد بين كل حى وناد ، بعيد على قرب المكان ، وحيد على كثرة الجيران ، مستوحش مما به يستأنسون ، مستأنس بما به يستوحشون ، مقيم إذا ظعنوا(١٧) ، ظاعن إذا قطنوا(١٨) ، منفرد فى طريق طلبه ، لا يقر قراره حتى يظفر به . فهو الكائن معهم بجسده ، البائن منهم بمقصده ، نامت فى طلب الهدى أعينهم ، وما ليل مطيته بنائم . وقعدوا عن الهجرة النبوية ، وهو فى طلبها مشمّر قائم ، يعيبونه بمخالفة أرائهم ، ويزرون عليه إزراءه على جهالاتهم وأهوائهم : قد رجموا فيه الظنون ، وأحدقوا فيه العيون ، وتربصوا به ريب المنون ﴿ فتربّصُوا إنّا مَعَكُمْ مُتَربّصُونَ ﴾ [التوبة : ٥٢] .

---

(١٥) أخرج البخارى فى كتاب « الجهاد والسير » باب « فضل الجهاد والسير » (حـ ٦ / ٢٧٨٣ / فتح) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « لا هجرة بعد الفتح ، ولكن جهاد ونية ، وإذا استنفرتم فانفروا » ، (حـ ٦ / ح ٢٨٢٥ ، ٣٠٧٧) من حديث ابن عباس ومسلم فى كتاب « الامارة » باب « المبايعة بعد فتح مكة على الاسلام والجهاد والخير » (حـ ٣ / ٨٦ / ح ١٨٦٤ / ص ١٤٨٨) من حديث عائشة رضى الله عنها .

(١٦) سفت : سفت الريح التراب تسفيه سفياً : ذرته

(قلت) يريد المؤلف رحمه الله أن يقول ان هذه الهجرة ضاعت بين الناس واندرست وضاع معالمها كما تذر الريح التراب على الشيء فتطمسه .

(١٧) ظعنوا : ساروا

(١٨) قطنوا : القطون : الإقامة . قطن بالمكان يقطن قطوناً : أقام به وتوطن ، فهو قاطن .

(لسان العرب / مادتى / ظعن / قطن)

﴿ قَالَ ربِّ ٱحْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنا الرَّحْمٰنُ الْمُسْتَعانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء : ١١٢] .

نحن وإيـــــاكم نمـــوت ، فمـــــا أفلـح عنـد الحســاب من نـــدمـــا

● والمقصود : أن هذه الهجرة النبوية شأنها شديد . وطريقها على غير المعتاد بعيد .

بعيــد على كسـلان أو ذى مـلالــة أمـــا على المشتـــاق فهـــو قريب

ولعمر الله ، مـاهى إلا نـور يتـلألأ ، ولكن أنت ظـلامـه ، وبـدر أضـاء مشـارق الأرض ومغاربها ، ولكن أنت غيمه وقتـامـه . ومنهل عـذب صـاف ، وأنت كـدره ومبتـدأ لخير عظيم ، ولكن ليس عندك خبره .

فاسمع الآن شأن هذه الهجرة والدلالة عليهـا ، وحـاسب مـا بينـك وبين الله ، هل أنت من المهاجرين لها ، أو المهاجرين إليها ؟

تعريف الهجرة إلى الرسول ﷺ :

● فحـد هـذه الهجرة : سفر النفس فى كل مسـألـة من مسـائل الإيمـان ، ومنزل من منـازل القلوب ، وحادثـة من حوادث الأحكام إلى معـدن الهـدى ، ومنبع النور الملتقى من فم الصـادق المصدوق الذى : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عنِ الهَوى . إنْ هُوَ إلاَّ وَحْيٌ يُوحَى ﴾ [النجم : ٣ ، ٤] .

فكل مسألة طلعت عليها شمس رسالته ، وإلا فـاقـذف بهـا فى بحر الظلمـات ، وكل شـاهـد عدَّله هذا المزكى وإلا فعدَّه من أهل الريب والتهات ، فهذا حد هذه الهجرة .

فما للمقيم فى مدينة طبعه وعوائده ، القاطن فى دار مرباه ومولده ، القائل : إنا على طريقة آبائنا سالكون ، وإنا بحبلهم متمسكون ، وإنا على آثـارهم مقتـدون . ولهـذه الهجرة التى كلَّت(١٩) عليهم ، واستند فى طريقة نجاحه وفلاحه إليهم ، معتذراً بأن رأيهم خير من رأيـه لنفسـه ، وأن ظنونهم وآراءهم أوثق من ظنه وحدسه .

ولو فتشت عن مصدر مقصود هذه الكلمة لوجدتها صـادرة عن الإخلاد إلى أرض البطـالـة ، متولدة بين الكسل وزوجه الملالة(٢٠) .

---

(١٩) كلَّت : أى أعْيَتْ (وهى كذا بالأصل . ولعل صوابه « فهو يعيش كلاً عليهم » أى عالة عليهم)
(من نسخة الدكتور محمد جميل غارى)

(٢٠) الملالة : وهو أن تملّ شيئاً وتعرض عنه
(لسان العرب مادة ملل)

هجـرتـان :

● والمقصود : أن هـذه الهجرة فرض على كل مسلم ، وهى مقتضى « شهادة أن محمـداً رسول ﷺ » .

كما أن الهجرة الأولى مقتضى « شهادة أن لا إله إلا الله » .

وعن هاتين الهجرتين يسأل كل عبد يوم القيامة ، وفى البرزخ ، ويطالب بها فى الدنيـا ودار البرزخ ودار القرار[٢١] .

● قـال قتـادة[٢٢] : « كلمتـان يسـأل عنهما الأولون والآخرون : مـاذا كنتم تعبـدون ومـاذا أجبتم المرسلين ؟ » .

وهاتان الكلمتـان همـا مضمون الشهـادتين . وقـد قـال تعـالى : ﴿ فَلاَ وَرَبِّكَ لاَيُؤْمِنُونَ حَتى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾ [النساء : ٦٥] . فأقسم سبحانـه بـأجلّ مقسم بـه – وهو نفسـه عز وجل – على أنـه لا يثبت لهم الإيمـان ، ولا يكونـون من أهلـه ، حتى يحكمـوا رسـول الله ﷺ فى جميع موارد النزاع فى جميع أبواب الدين .

فإن لفظة « ما » من صيغ العموم ، فإنها موصلـة تقتضى نفى الإيمـان أو يوجـد تحكيمـه فى جميع ما شجر بينهم .

ولم يقتصر على هـذا حتى ضم إليـه انشراح صـدورهم بحكمـه ، حيث لا يجـدون فى أنفسهم حرجـاً – وهو الضيق والحصر – من حكمـه ، بل يقبلوا حكمـه بـالانشراح ، ويقـابلـوه بـالتسليم لا أنهم يأخذونه على إغماض ، ويشربونـه على قـذى ، فـإن هـذا منـافٍ للإيمـان ، بل لابـد أن يكون أخذه بقبول ورضا وانشراح صدر .

---

(٢١) يقصد المؤلف هنا رحمه الله بالمجرتين هما « شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله » .
ففى البرزخ : يسأله الملكان كما جاء فى حديث البراء بن عازب عند الامام أحمد من ربك وما دينـك ومـا تقول فى الرجل الذى بعث فيكم ؟
(وفى الدنيا) لا يكون العبد مسلماً إلا بها .
(وفى دار القرار) لن يدخل العبد الجنـة إلا بهمـا لقـول النبـى ﷺ من شهـد ان لا إلـه الا الله وأن محمـداً رسول الله حرم الله عليه النار) رواه مسلم والترمذى وأحمد من حديث عباده ..

(٢٢) هو أبو الخطاب قتادة بن دعامة السدوسى البصرى الاكه ، كان تابعياً وعالما كبيراً وكان اجمع النـاس وهو ثقـه ثبت مات سنة سبع عشرة ومائة بواسط .
« تقريب التهذيب ٢ / ١٫٢٣ / وفيات الاعيان ٤ / ٨٥ »

● ومتى أراد العبد أن يعلم هذا فلينظر فى حاله ، ويطالع قلبه عند ورود حكمه على خلاف هواه وغرضه ، أو على خلاف ماقلد فيه أسلافه من المسائل الكبار وما دونها ﴿ بَلِ الإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ . وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ ﴾ .

[القيامة : ١٤ ، ١٥]

فسبحان الله ! كم من حزازة فى نفوس كثير من الناس من كثير من النصوص وبودهم أن لو لم ترد ! وكم من حرارة فى أكبادهم منها ! وكم من شجى فى حلوقهم منها ومن موردها ! ستبدو لهم تلك السرائر بالذى يسوء ، ويخزى يوم تُبلى السرائر .

● ثم لم يقتصر سبحانه على ذلك حتى ضم إليه قوله تعالى : ﴿ ويسلّموا تسليماً ﴾

[النساء : ٦٥]

فذكر الفعل مؤكداً بمصدره القائم مقام ذكره مرتين . وهو التسليم والخضوع له والانقياد لما حكم به طوعاً ورضا ، وتسليما لا قهراً ومصابرة كما يسلم المقهور لمن قهره كرهاً ، بل تسليم عبد مطيع لمولاه وسيده الذى هو أحب شىء إليه ، يعلم أن سعادته وفلاحه فى تسليمه إليه ، ويعلم بأنه أولى به من نفسه ،(وأبر به منها وأقدر على تخليصها .

فمتى علم العبد هذا من رسول الله ﷺ واستسلم له ، وسلم إليه : انقادت له كل علة فى قلبه ورأى أن لا سعادة له إلا بهذا التسليم والانقياد .

وليس هذا مما يحصل معناه بالعبارة ، بل هو أمر انشق القلب واستقر فى سويدائه لا تفى العبارة بمعناه . ولا مطمع فى حصوله بالدعوى والأمانى .

وكلٌّ يدعى وصلاً لليلى ... وليلى لا تقرُّ لهم بذاكا

الحب بين العلم والحال :

● وفرق بين علم الحب وحال الحب . فكثيراً ما يشتبه على العبد علم الشىء بحاله ووجوده ، وفرق بين المريض العارف بالصحة والاعتدال ؛ وهو مثخن بالمرض ، وبين الصحيح السليم ، وإن لم يحسن وصف الصحة والعبارة عنها . وكذلك فرق بين وصف الخوف والعلم به وبين حاله ووجوده .

ما فى الآية من تأكيد اتباع الرسول :

● وتأمل تأكيده سبحانه لهذا المعنى المذكور فى الآية بوجوه عديدة من التأكيد :

أولها : تصديرها بتضمن المقسم عليه للنفى وهو قوله « لا يؤمنون » وهذا منهج معروف فى كلام العرب ، إذا أقسموا على شيء منفى صدروا جملة القسم بأداة نفى مثل هذه الآية .

ومثل مافى قول الصديق أبو بكر رضى الله عنه : « لاها الله[٢٣] – لا يعمد إلى أسد الله يقاتل عن الله ورسوله فيعطيك سلبه » .

وقول الشاعر :

فلا وأبيك ابنة العامرى   لا يدعى القوم أنى أفر

وقال الآخر :

فلا والله لا يلقى لما بى   ولا لما بهم أبداً دواء

وهذا فى كلامهم أكثر من أن يذكر .

● وتأمل جمل القسم التى فى القرآن المصدرة بحرف النفى كيف تجد المقسم عليه منفياً ومتضمناً للنفى ؟ ولا يخرم[٢٤] هذا قوله تعالى : ﴿ **فَلاَ أُقسِمُ بمواقِعِ النُّجُومِ . وإنه لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عظِيمٌ . إنه لَقُرآنٌ كريمٌ** ﴾ [الواقعة : ٧٥ – ٧٧] .

فإنه لما كان المقصود بهذا القسم نفى ما قاله الكفار فى القرآن : من أنه شعر ، أو كهانة ، أو أساطير الأولين ، صدر القول بأداة النفى . ثم أثبت له ماقالوه . فتضمنت الآية أن ليس الأمر كما يزعمون ، ولكنه قرآن كريم .

ولهذا صرح بالأمرين : النفى والإثبات مثل قوله تعالى : ﴿ **فلا أُقسمُ بالخنَّسِ . الجوارِ الكُنَّسِ . والليلِ إذا عسعَسَ . والصبحِ إذا تنفَّسَ . إنه لقولُ رسولٍ كريمٍ . ذى قوةٍ عند ذى العرشِ مكينٍ . مطاعٍ ثَمَّ أمينٍ . وما صاحبكم بمجنونٍ . ولقد رآه بالأُفُقِ المبينِ . وماهو على الغيبِ بضَنينٍ . وماهو بقولِ شيطانٍ رجيمٍ** ﴾ . [التكوير : ١٥ – ٢٥].

وكذلك قوله : ﴿ **لا أُقْسِمُ بيومِ القِيَامةِ . ولاَ أُقْسِمُ بالنَّفْسِ اللّوامَةِ . أيحسَبُ**

---

(٢٣) أخرج البخارى فى كتاب « المغازى » باب (٥٤) (حـ ٧ / ح ٤٣٢١) حديثاً فى غزوة حنين لأبى محمد مولى أبى قتادة وفى آخره لفظ ابى بكر الصديق رضى الله عنه قوله :–
« لاها الله ، إذاً لاَ يعمِدُ إلى أسد من أسد الله يقاتل عن الله ورسوله ﷺ فيعطيك سلبه .. الحديث
قال ابن حجر فى « الفتح » لاها الله ما فعلت كذا .
(انظر الفتح ٧ / ٦٣٣ / / ريان)

(٢٤) يخرم : ينقص .

الإنسانُ ألّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ . بلَى قادرِينَ على أن نُسَوِّيَ بنانَهُ ﴾ [القيامة : ١ - ٤] .

● والمقصود : أن افتتاح هذا القسم بأداة النفى يقتضى تقوية المقسم عليه ، وتأكيده وشدة انتفائه .

وثانيها : تأكيده بنفس القسم .

وثالثها : تأكيده بالمقسم به وهو إقسامه بنفسه لا بشئ من مخلوقاته ، وهو سبحانه يقسم بنفسه تارة وبمخلوقاته تارة .

ورابعها : تأكيده بانتفاء الحرج ، وهو وجود التسليم .

وخامسها : تأكيد الفعل بالمصدر ، وما هذا التأكيد إلا لشدة الحاجة إلى هذا الأمر العظيم ، وإنه مما يعتنى به ويقرر فى نفوس العباد بما هو من أبلغ أنواع التقرير .

حب الرسول :

وقال تعالى : ﴿ **النبيُّ أوْلَى بالمؤمِنينَ من أنفسِهِمْ** ﴾ [الأحزاب : ٦] ، **وهو دليل على** أن من لم يكن الرسول أولى به من نفسه فليس من المؤمنين(٢٥) ، **وهذه الأولوية تتضمن أموراً :**

منها : أن يكون أحب إلى العبد من نفسه ؛ لأن الأولوية أصلها الحب ، ونفس العبد أحب له من غيره ، ومع هذا يجب أن يكون الرسول أولى به منها ، وأحب إليه منها ، فبذلك يحصل له اسم الإيمان .

ويلزم من هذه الأولوية والمحبة كال الانقياد والطاعة والرضا والتسليم وسائر لوازم المحبة ، من الرضا بحكمه والتسليم لأمره وإيثاره على ما سواه .

ومنها : أن لا يكون للعبد حكم على نفسه أصلا ، بل الحكم على نفسه للرسول ﷺ يحكم عليها أعظم من حكم السيد على عبده أو الوالد على ولده ، فليس له فى نفسه تصرف قط إلا ما تصرف فيه الرسول الذى هو أولى به منها .

فياعجباً كيف تحصل هذه الأولوية لعبد قد عزل ما جاء به الرسول ﷺ عن منصب

---

(٢٥) أخرج البخارى فى كتابه « الايمان والنذور » باب « كيف كانت يمين النبى ﷺ » (حـ ١١ / ح ٦٦٣٢ / فتح) من حديث عبد الله بن هشام قال : « كنا مع النبى ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب ، فقال له عمر : يارسول الله ، لأنت احب إلىّ منْ كل شيء إلا من نفسي . فقال النبى ﷺ : لا والذى نفسى بيده ، حتى اكون أحبّ اليك من نفسك : فقال عمر : فانه الآن والله لأنت احبُّ إلىّ من نفسى . فقال النبى ﷺ : الآن يا عمر .

التحكيم ، ورضى بحكم غيره واطمأن إليه أعظم من اطمئنانه إلى الرسول ﷺ ، وزعم الهدى لا يتلقى من مشكاته وإنما يتلقى من دلالة العقول ، وأن الذى جاء به لا يفيد اليقين ، إلى غير ذلك من الأقوال التى تتضمن الإعراض عنه ، وعما جاء به ، والحوالة فى العلم النافع إلى غيره ، ذلك هو الضلال البعيد ولا سبيل إلى ثبوت هذه الأولوية إلا بعزل كل ماسواه ، وتوليته فى كل شيء وعرض ما قاله كل أحد سواه علي ما جاء به ، فإن شهد له بالصحة قبله ، وإن شهد له بالبطلان رده . وإن لم تتبين شهادته له لا بصحة ولا ببطلان جعله بمنزلة أحاديث أهل الكتاب ووقفه حتى يتبين أى الأمرين أولى به ؟

● فمن سلك هذه الطريقة استقام له سفر الهجرة واستقام له علمه وعمله ، وأقبلت وجوه الحق إليه من كل جهة .

أدعياء المحبة :

● ومن العجب أن يدعى حصول هذه الاولوية والمحبة التامة من كان سعيه واجتهاده ونصبه فى الاشتغال بأقوال غيره وتقريرها ، والغضب والمحبة لها والرضا بها والتحاكم إليها ، وعرض ماقاله الرسول عليها ، فإن وافقها قبله ، وإن خالفها التمس وجوه الحيل ، وبالغ فى رده لياً وإعراضاً .

* * * *

الإعراض عن الرسول :

كما قال تعالى : ﴿ وإن تَلْوُوا أو تُعرِضُوا فإنَّ الله كانَ بما تعملونَ خَبيراً ﴾
[النساء : ١٣٥]

● وقد اشتملت هذه الآية على أسرار عظيمة يجب التنبيه على بعضها لشدة الحاجة إليها .

قال تعالى : ﴿ يا أيُّها الَّذين آمَنُوا كُونُوا قوَّامينَ بالْقِسْطِ شُهداءَ للهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أو الوَالِدَيْنِ والأقْرَبِينَ إنْ يَكُنْ غَنيًّا أَوْ فَقيراً فالله أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُوا الْهوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وإنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فإنَّ الله كانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبيراً ﴾
[النساء : ١٣٥]

فأمر سبحانه بالقيام بالقسط وهو العدل فى هذه الآية ، وهذا أمر بالقيام به فى حق كل أحد عدواً كان أو ولياً وأحق ما قام له العبد بقصد الأقوال والآراء والمذاهب : إذ هى متعلقة بأمر الله وخبره .

فالقيام فيها بالهوى والمعصية مضاد لأمر الله ، مُنافٍ لما بعث به رسوله . والقيام فيها بالقسط وظيفة خلفاء الرسول فى أمته وأمنائه بين أتباعه . ولا يستحق اسم الأمانة إلا من قام فيها بالعدل المحض نصيحة لله ولكتابه ولرسوله ولعباده .

وأولئك هم الوارثون حقاً .

لا من يجعل أصحابه ونحلته ومذهبه معياراً على الحق وميزاناً له ، يعادى من خالفه ويوالى من وافقه بمجرد موافقته ومخالفته(٢٦) ، فأين هذا من القيام بالقسط الذى فرضه الله على كل أحد ؟ وهو فى هذا الباب أعظم فرضاً وأكبر وجوباً ؟

شهداء الله :

● ثم قال (شهداء الله) الشاهد هو المخبر ؛ فإن أخبر بحق فهو شاهد عدل مقبول ، وإن أخبر بباطل فهو شاهد زور .

وأمر تعالى أن يكون شهيداً له مع القيام بالقسط وهذا يتضمن أن تكون الشهادة بالقسط وأن تكون لله لا لغيره .

وقال فى الآية الأخرى : ﴿ **كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ** ﴾ [المائدة : ٨] فتضمنت الآيتان أموراً أربعة :

أحدها : القيام بالقسط .
الثانى : أن يكون لله .
الثالث : الشهادة بالقسط .
الرابع : أن تكون لله .

واختصت آية النساء بالقسط والشهادة لله .

وآية المائدة بالقيام لله والشهادة بالقسط لسر عجيب من أسرار القرآن ، ليس هذا موضع ذكره .

● ثم قال تعالى : ﴿ **وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ** ﴾ فأمر سبحانه أن

---

(٢٦) (قلت) ما اكثره فى أيامنا هذه حيث يكون الفرد فى جماعة من الجماعات معيارًا عند جماعته على الحق وميزاناً له تعادى من خالفه وتوالى من وافقه مادام كلامه موافقاً لكلام جماعته وفرقته ولو خالف هذا الفرد الكتاب والسنه وإجماع الأمه ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم

يقام بالقسط ويشهد على كل أحد ولو كان أحب الناس إلى العبد فيقوم بالقسط على نفسه ووالديه اللذين هما أصله ، وأقاربه الذين هم أخص به والصديق من سائر الناس ، فإن كان مافى العبد من محبة لنفسه ولوالديه وأقربيه يمنعه من القيام عليهم بالحق ، ولا سيما إذا كان الحق لمن يبغضه ويعاديه قبلهم ، فإنه لا يقوم به فى هذا الحال إلا من كان الله ورسوله أحب إليه من كل ما سواهما .

وهذا يمتحن به العبد إيمانه فيعرف منزلة الإيمان من قلبه ومحله منه ، وعكس هذا عدل العبد فى أعدائه ومن يجفوه ، فإنه لا ينبغى أن يحمله بغضه لهم أن يحيف عليهم ، كما لا ينبغى أن يحمله حبه لنفسه ووالديه وأقاربه على أن يترك القيام عليهم بالقسط ، فلا يدخله ذلك البغض فى باطل ، ولا يقصر به هذا الحب عن الحق . كما قال بعض السلف : العادل هو الذى إذا غضب لم يدخله غضبه فى باطل ، وإذا رضى لم يخرجه رضاه عن الحق .

● اشتملت الآيتان على هذين الحكمين : وهما القيام بالقسط والشهادة به على الأولياء والأعداء .

● ثم قال تعالى : ﴿ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ﴾ [النساء : ١٣٥] . منكم ، هو ربهما ومولاهما وهما عبيده ، كما أنكم عبيده فلا تحابوا غنياً لغناه ، ولا فقيراً لفقره ، فإن الله أولى بهما منكم .

وقد يقال فيه معنى آخر أحسن من هذا ، وهو أنهم ربما خافوا من القيام بالقسط وأداء الشهادة على الغنى والفقير .

أما الغنى فخوفاً على ماله ، وأما الفقير فلإعدامه وأنه لا شيء له : فتتساهل النفوس فى القيام عليه بالحق فقيل لهم : والله أولى بالغنى والفقير منكم ، أعلم بهذا وأرحم بهذا ، فلا تتركوا أداء الحق والشهادة على غنى ولا فقير .

● ثم قال تعالى ﴿ فَلاَ تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا ﴾ .

[النساء : ١٣٥]

نهاهم عن اتباع الهوى الحامل على ترك العدل .

وقوله تعالى : ﴿ أن تعدلوا ﴾ منصوب الموضع لأنه مفعول لأجله ، وتقديره عند البصريين كراهية أن تعدلوا ، أو حذر أن تعدلوا ، فيكون اتباعكم للهوى كراهية العدل أو فراراً منه . وعلى قول الكوفيين التقدير أن لا تعدلوا ، وقول البصريين أحسن وأظهر .

اللىّ والإعـراض :

ثم قال تعالى : ﴿ **وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فإنّ الله كانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً** ﴾ [النساء : ١٣٥] .

ذكر سبحانه السببين الموجبين لكتمان الحق ، محذراً منهما ومتوعداً عليهما .

أحدهما : اللّىّ .

والآخر : الإعراض .

فإن الحق إذا ظهرت حجته ولم يجد من يروم دفعها طريقاً إلى دفعها ، أعرض عنها وأمسك عن ذكرها فكان شيطاناً أخرس ، وتارة يلويها ويحرفها .

اللّىّ مثال الفتل وهو التحريف .

وهو نوعان : لىّ فى اللفظ ، ولىّ فى المعنى .

فاللىّ فى اللفظ أن يلفظ بها على وجـه لا يستلزم الحق ، إمـا بزيـادة لفظـة أو نقصـانهـا أو إبدالها بغيرها .

ولىّ فى كيفيـة أدائها وإيهـام السـامـع لفظـا وإرادة غيره ، كما كان اليهـود يلـوون ألسنتهم بالسلام على النبى ﷺ وغيره ، فهذا أحد نوعى اللىّ .

والنوع الثانى منه : لىّ المعنى وهو تحريفه وتأويل اللفظ على خلاف مراد المتكلم ، وبجهـالـة مـالم يرده أو يسقـط منـه لبعض المراد بـه ، ونحو هـذا من لىّ المعـانى ، فقـال تعالى : ﴿ **وإنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنّ الله كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً** ﴾ .

● ولما كان الشاهد مطالباً بأداء الشهـادة على وجهها فلا يكتمها ولا يغيرهـا كان الإعراض نظير الكتمان .

واللىّ نظير تغييرها وتبديلها .

فتأمل ما تحت هذه الآية من كنوز العلم .

● **والمقصود :** أن الـواجب الـذى لا يتم الإيمـان ، بـل لا يحصـل مسمى الإيمـان إلا بـه ، مقابلة النصوص بالتلقى والقبول والإظهار لها ودعوة الخلق إليهـا ، ولا تقـابل بـالاعتراض تـارة وباللىّ أخرى .

* * * *

الخيرة لله :

● وقال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إذا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهمُ الخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ [الأحزاب : ٣٦] فدل هذا على أنه إذا ثبت لله ورسوله فى كل مسألة من المسائل حكم طلبي أو خبرى ، فإنه ليس لأحد أن يتخير لنفسه غير ذلك الحكم فيذهب إليه ، وأن ذلك ليس لمؤمن ولا مؤمنة أصلا ، فدل على أن ذلك منافٍ للإيمان .

* * * *

موقف الأئمة من السنة :[٢٧]

● وقد حكى الشافعى رضى الله عنه إجماع الصحابة والتابعين ومن بعدهم ، على أن من استبانت له سنة رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدعها لقول أحد ، ولم يسترب أحد من أئمة الإسلام فى صحة ما قاله الشافعى رضى الله تعالى عنه .

فإن الحجة الواجب اتباعها على الخلق كافة إنما هو قول المعصوم الذى لا ينطق عن الهوى ،

---

(٢٧) ذكر الاستاذ الشيخ محمد بن ابراهيم الشيبانى فى كتابه (حياة الالبانى وأثاره وثناء العلماء عليه) كلام العلامة المحدث الالبانى فيما كتبه عن الأئمة الاربعه وموقفهم من السنة . وسأنقل بعض ما جاء عنهم مختصراً ..

أولاً : الامام ابو حنيفه النعمان رحمه الله قال :-

١ - إذا صح الحديث فهو مذهبى

٢ - لا يحل لأحد أن يأخذ بقولنا مالم يعلم من أين أخذناه

٣ - حرام على من لم يعرف دليلى ان يفتى بكلامى ، وراد فى روايته « فاننا بشر نقول القول اليوم ونرجع عنه غداً »

وفى أخرى « ويحك يايعقوب (هو أبو يوسف) لا تكتب كل ما تسمع منى ، فانى قد أرى الرأى اليوم وأتركه غداً ، وأرى الرأى غدا وأتركه بعد غد »

٤ - إذا قلت قولاً يخالف كتاب الله تعالى وخبر الرسول ﷺ فاتركوا قولى .

ثانياً : الامام مالك بن أنس رحمه الله قال :

١ - انما انا بشر اخطئ واصيب فانظروا فى رأيي فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوه وكل مالم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه »

٢ - ليس لأحد بعد النبى ﷺ إلا ويؤخذ من قوله ويترك ، إلا النبى ﷺ .

ثالثاً : الامام الشافعى رحمه الله قال :-

١ - مامن احد إلا وتذهب عليه سنة لرسول الله ﷺ وتعزب عنه فمهما قلت من قول ، أو أصلت من أصل ، فيه عن رسول الله ﷺ خلاف ما قلت ، فالقول ما قال رسول الله ﷺ ، وهو قولى ..

٢ - أجمع المسلمون على أن من استبان له سنة عن رسول الله ﷺ « لم يحل له أن يدعها لقول أحد » (ما ذكره المصنف) وله اقوال أخرى فى هذا كثيرة .

وأما أقوال غيره فغايتها أن تكون سائغة الاتباع ، فضلا عن أن يعارض بها النصوص وتقدم عليها ، عياذاً بالله من الخذلان .

● وقال تعالى : ﴿ وَأَطِيعُوا الله وَأَطِيعُوا الرسولَ واحْذَرُوا ، فإنْ تولَّيْتُم فاعْلَمُوا أنَّما عَلَى رَسُولِنا البَلاغُ المُبِينُ ﴾ [المائدة : ٩٢] .

فأخبر سبحانه أن الهداية فى طاعة الرسول لا فى غيرها ، فإنه معلق بالشرط فينتفى بانتفائه وليس هذا من باب دلالة المفهوم ، كما يغلط فيه كثير من الناس ويظن أنه محتاج فى تقريره الدلالة منه لا تقرير كون المفهوم حجة . بل هذا من الأحكام التى ترتبت على شروط وعلقت فلا وجود لها بدون شروطها ، إذ ما علق على الشرط فهو عدم عند عدمه ؛ وإلا لم يكن شرطاً له .

إذا ثبت هذا : فالآية نص على انتفاء الهداية عند عدم طاعته(٢٨) .

● وفى إعادة الفعل فى قوله تعالى : ﴿ وَأَطِيعُوا اللهَ وأَطِيعُوا الرسولَ ﴾ دون الاكتفاء بالفعل الأول ، سر لطيف وفائدة جليلة ، سنذكرها عن قريب إن شاء الله تعالى .

● وقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ تولَّوْا فإنَّمَا عليهِ ما حُمِّلَ ﴾ [النور : ٥٤] .

الفعل للمخاطبين . وأصله فإن تتولوا ، فحذفت إحدى التاءين تخفيفاً .

والمعنى : أنه قد حمل أداء الرسالة وتبليغها ، وحملتم طاعته والانقياد له والتسليم .

كما ذكره البخارى فى صحيحه عن الزهرى قال : « من الله البيان وعلى الرسول البلاغ وعلينا التسليم »(٢٩) .

= رابعاً : الامام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى قال :

١ - لا تقلدنى ولا تقلد مالكاً ولا الشافعى ولا الاوزاعى ولا الثورى وخذ من حيث اخذوا .

٢ - رأى الاوزاعى ورأى مالك ورأى ابن حنيفة كله رأى ، وهو عندي سواء ، وانما الحجة فى الآثار .

٣ - من رد حديث رسول الله ﷺ « فهو على شفا هلكة »

قال الالبانى : تلك هى اقوال الأئمة رضى الله تعالى عنهم فى الأمر بالتمسك بالحديث ، والنهى عن تقليدهم دون بصيرة ، وهى من الوصوح والبيان ، بحيث لا تقبل جدلاً ولا تأويلا ....

ا . هـ بتصرف حياة الالبانى (حـ ١ / ٤١٠ : ٤١٨)

(٢٨) النساء / ٥٩ ، المائدة / ٩٢

(٢٩) ذكره البخارى فى كتاب « التوحيد » باب قول الله تعالى (يأيها الرسول بلغ ما انزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته) (حـ ١٣ / ص ٥١٢ / فتح ريان) من كلام الزهرى ولفظه (من الله عز وجل الرسالة وعلى رسول الله ﷺ البلاغ ، وعلينا التسليم) .

فإن تركتم أنتم ما حملتموه من الإيمان والطاعة فعليكم لا عليه .
فإنه لم يحمل إيمانكم وإنما حمل تبليغكم
وإنما حمل أداء الرسالة إليكم .

﴿ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ ﴾ [النور : ٥٤] ليس عليه هداهم وتوفيقهم .

● وقال تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا الله وأَطِيعُوا الرَّسُولَ وأُولِى الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ والرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وأحسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ [النساء : ٥٩] .

النداء بالإيمان :

فأمر سبحانه بطاعته وطاعة رسوله .

● وافتتح الآية بالنداء باسم الإيمان، المشعر ، بأن المطلوب منهم من موجبات الاسم الذى نودوا وخوطبوا به ، كما يقال : يامن أنعم الله عليه وأغناه من فضله ، أحسن كما أحسن الله إليك ، ويأيها العالم علّم الناس ما ينفعهم ، ويا أيها الحاكم احكم بالحق ونظائره .

● ولهذا كثيراًما يقع الخطاب فى القرآن بالشرائع كقوله تعالى :

﴿ يَأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عليكُمُ الصيامُ ﴾ [البقرة : ١٨٣] .
﴿ يَأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِىَ للصَّلاَةِ ﴾ [الجمعة : ٩] .
﴿ يَأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بالعُقُود ﴾ [المائدة : ١] .

ففى هذا إشارة إلى أنكم إن كنتم مؤمنين فالإيمان يقتضى منكم كذا وكذا ، فإنه من موجبات الإيمان وتمامه .

● ثم قال تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا الله وأَطِيعُوا الرَّسُولَ وأُولِى الأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ [النساء : ٥٩] .

فقرن بين طاعة الله والرسول وطاعة أولى الأمر ، وسلط عليها عاملا واحداً . وقد كان ربما يسبق إلى الوهم أن الأمر يقتضى عكس هذا ، فإنه من يطع الرسول فقد أطاع الله . ولكن الواقع هنا فى الآية المناسب .

وتحته سر لطيف وهو دلالته على أن ما يأمر به رسوله يجب طاعته فيه ، وإن لم يكن

مأموراً به بعينه فى القرآن طاعة الرسول مفردة ومقرونة .

فلا يتوهم متوهم أن ما يأمر به الرسول إن لم يكن فى القرآن ، وإلا فلا تجب طاعته فيه .

كما قال النبى ﷺ : « يوشك رجل شبعان متكىء على أريكته يأتيه الأمر من أمرى فيقول بيننا وبينكم كتاب الله تعالى ، ما وجدنا فيه من شىء اتبعناه ألا وإنى أوتيت الكتاب ومثله معه »(٣٠) .

طاعة أولى الأمر :

● أما أولو الأمر فلا تجب طاعة أحدهم إلا إذا اندرجت تحت طاعة الرسول : لا طاعة مفردة مستقلة ، كما صح عن النبى ﷺ أنه قال : « على المرء السمع والطاعة فيما أحب وكره مالم يؤمر بمعصية الله تعالى . فإذا أمر بمعصية الله تعالى فلا سمع ولا طاعة »(٣١) .

فتأمل كيف اقتضت إعادة هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ **فردوه إلى الله والرسول** ﴾ ولم يقل ﴿ **وإلى الرسول** ﴾ فإن الرد إلى القرآن رد إلى الله والرسول ، فما حكم به الله تعالى هو بعينه حكم رسوله ، وما يحكم به الرسول ﷺ هو بعينه حكم الله .

فإذا رددتم إلى الله ما تنازعتم فيه يعنى كتابه فقد رددتموه إلى رسوله . وكذلك إذا رددتموه إلى رسوله فقد رددتموه إلى الله ، وهذا من أسرار القرآن .

من هم أولو الأمر :

وقد اختلفت الرواية عن الإمام أحمد رحمه الله تعالى فى أولى الأمر ، وعنه فيهم رحمه الله تعالى روايتان :

إحداهما : أنهم العلماء

---

(٣٠) أخرجه ابو داود فى كتاب « السنة » باب « فى لزوم السنة » (حـ ٤ / ٤٦٠٤) من حديث المقدام بن معد يكرب بلفظ أوله « ألا إنى أوتيت الكتاب ومثله معه ... الحديث » وأحمد فى « مسنده » (٤ / ١٣١) بمثل حديث ابى داود .

وذكره التبريزى فى « مشكاة المصابيح » (حـ ١ / ١٦٣) وقال الألبانى : سنده صحيح .

(٣١) اخرجه البخارى فى كتاب « الأحكام » باب « السمع والطاعة للامام مالم تكن معصية » (حـ ١٣ / ٧١٤٤ / فتح) من حديث ابن عمر .

ومسلم فى كتاب « الامارة » باب « وجوب طاعة الامراء فى غير معصية وتحريمها فى المعصية » (حـ ٣ / ٣٨ / ح ١٨٣٩ / ص ١٤٦٩) والترمذى والنسائى وابن ماجه وأحمد ...

والثانية : أنهم الأمراء .

والقولان ثابتان عن الصحابة فى تفسير الآية ، والصحيح أنها متناولة للصنفين جميعاً ، فإن العلماء والأمراء ولاة الأمر الذى بعث الله به رسوله ، فإن العلماء ولاته حفظا وبياناً وذباً عنه ورداً على من ألحد فيه وزاغ عنه .

وقد وكلهم الله بذلك فقال تعالى : ﴿ **فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ** ﴾ [الأنعام : ٨٩] فيالها من وكالة أوجبت طاعتهم والانتهاء إلى أمرهم وكون الناس تبعاً لهم .

والأمراء ولاته قياماً وعناية وجهاداً وإلزاماً للناس به ، وأخذهم على يد من خرج عنه .

وهذان الصنفان هما الناس وسائر النوع الإنسانى تبع لهما ورعية .

● ثم قال تعالى : ﴿ **فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ** ﴾ [النساء : ٥٩] .

وهذا دليل قاطع على أنه يجب رد موارد النزاع فى كل ما تنازع فيه الناس من الدين كله إلى الله ورسوله لا إلى أحد غير الله ورسوله ، فمن أحال الرد على غيرهما فقد ضاد أمر الله ، ومن دعا عند النزاع إلى حكم غير الله ورسوله فقد دعا بدعوى الجاهلية ، فلا يدخل العبد فى الإيمان حتى يرد كل ما تنازع فيه المتنازعون إلى الله ورسوله .

ولهذا قال الله تعالى : ﴿ **إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ** ﴾(٣٢) وهذا مما ذكرنا آنفاً أنه شرط ينتفى المشروط بانتفائه ، فدل على أن من حكم غير الله ورسوله فى موارد مقتضى النزاع كان خارجاً من مقتضى الإيمان بالله واليوم الآخر ، وحسبك بهذه الآية العاصمة القاصمة بياناً وشفاء ، فإنها قاصمة لظهور المخالفين لها ، عاصمة للمتمسكين بها الممتثلين ما أمرت به .

● قال الله تعالى : ﴿ **لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾ [الأنفال : ٤٢] .

وقد اتفق السلف والخلف على أن الرد إلى الله هو الرد إلى كتابه ، والرد إلى الرسول هو الرد إليه فى حياته ، والرد إلى سنته بعد وفاته .

سعادة الدارين :

● ثم قال تعالى ﴿ **ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً** ﴾ [النساء : ٥٩] أى هذا الذى أمرتكم به

---

(٣٢) النساء / ٥٩

من طاعتى وطاعة رسولى وأولياء الأمر ورد ما تنازعتم فيه إلّى وإلى رسولى خير لكم فى معاشكم ومعادكم ، وهو سعادتكم فى الدارين ، فهو خير لكم وأحسن عاقبة .

فدل هذا على أن طاعة الله ورسوله وتحكيم الله ورسوله ، هو سبب السعادة عاجلا وآجلا . ومن تدبر العالم والشرور الواقعة فيه علم أن كل شر فى العالم سببه مخالفة الرسول والخروج عن طاعته ، وكل خير فى العالم فإنه بسبب طاعة الرسول .

وكذلك شرور الآخرة وآلامها وعذابها إنما هو من موجبات مخالفة الرسول ومقتضياتها ، فعاد شر الدنيا والآخرة إلى مخالفة الرسول وما يترتب عليه ، فلو أن الناس أطاعوا الرسول حق طاعته لم يكن فى الأرض شر قط ، وهذا كما أنه معلوم فى الشرور العامة والمصائب الواقعة فى الأرض ، فكذلك هو فى الشر والألم والغم الذى يصيب العبد فى نفسه ، فإنما هو بسبب مخالفة الرسول ، ولأن طاعته هى الحصن الذى من دخله كان من الآمنين ، والكهف الذى من لجأ إليه كان من الناجين .

فعلم أن شرور الدنيا والآخرة إنما هو الجهل بما جاء به الرسول ﷺ والخروج عنه .

وهذا برهان قاطع على أنه لا نجاة للعبد ولا سعادة إلا بالاجتهاد فى معرفة ما جاء به الرسول ﷺ علماً والقيام به عملا .

كمال السعادة :

● وكمال هذه السعادة بأمرين آخرين .

أحدهما : دعوة الخلق إليه .

والثانى : صبره واجتهاده على تلك الدعوة .

الكمال الإنسانى :

● فانحصر الكمال الإنسانى على هذه المراتب الأربعة :

أحدها : العلم بما جاء به الرسول ﷺ .

والثانية : العمل به .

والثالثة : نشره فى الناس ودعوتهم إليه .

والرابعة : صبره وجهاده فى أدائه وتنفيذه .

ومن تطلعت همته إلى معرفة ما كان عليه الصحابة رضى الله عنهم ، وأراد اتباعهم فهذه طريقتهم حقاً :

فإن شئت وصل القوم فاسلك سبيلهم   فقد وضحت للسالكين عيانا

وقال تعالى لرسوله ﷺ : ﴿ قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِى وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِى إِلَّى رَبِّى إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾ [سبأ : ٥٠] .

فهذا نص صريح فى أن هدى الرسول ﷺ إنما يحصل بالوحى ، فيا عجباً ! كيف يحصل الهدى لغيره من الآراء والعقول المختلفة والأقوال المضطربة ؟ ولكن : ﴿ مَن يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِداً ﴾

[الكهف : ١٧] .

فأى ضلال أعظم من ضلال من زعم أن الهداية لا تحصل بالوحى ، ثم يحيل فيها على عقل فلان ورأى فلان ؟ وقول زيد وعمرو ؟ ولقد عظمت نعمة الله على عبد عافاه من هذه البلية العظمى والمصيبة الكبرى ، والحمد لله رب العالمين .

● وقال تعالى : ﴿ آلمص . كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلاَ يَكُنْ فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ . اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف : ١ - ٣] . فأمر سبحانه باتباع ما أنزل على رسوله ونهى عن اتباع غيره . فما هو إلا اتباع المنزل . واتباع أولياء من دونه . فإنه لم يجعل بينهما واسطة . فكل من لا يتبع الوحى فإنما يتبع الباطل واتبع أولياء من دون الله ، وهذا بحمد الله ظاهر لا خفاء به .

● وقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَالَيْتَنِى اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً . يَاوَيْلَتَا لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلاَناً خَلِيلاً . لَقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِى وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنْسَانِ خَذُولاً ﴾ [الفرقان : ٢٧ - ٢٩] .

فكل من اتخذ غير الرسول ، بترك لأقواله وأرائه ما جاء به الرسول ﷺ فإنه قائل هذه المقالة لا محالة . ولهذا هذا الخليل كنى عنه باسم فلان . إذ لكل متبع أولياء من دون الله فلان وفلان .

فهذا حال الخليلين المتخاذلين على خلاف طاعة الرسول ﷺ ومآل تلك الخلة إلى العداوة واللعنة .

كما قال الله تعالى : ﴿ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ .

[الزخرف : ٦٧] .

وقد ذكر حال هؤلاء الأتباع وحال من تبعوهم في غير موضع من كتابه وكقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا . وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا . رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٦٦ - ٦٨] تمنى القوم طاعة الله ورسوله حين لا ينفعهم ذلك . واعتذروا بأنهم أطاعوا كبراءهم ورؤساهم . واعترفوا بأنهم لا عذر لهم في ذلك ، وأنهم أطاعوا السادات والكبراء وعصوا الرسول ، وآلت تلك الطاعة والموالاة إلى قولهم : ﴿ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ ﴾ وفي بعض هذا عبرة للعاقل وموعظة شافية . وبالله التوفيق .

● وقال تعالى : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ . قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ . وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ .

[الأعراف : ٣٧ - ٣٩] .

فليتدبر العاقل هذه الآيات ، وما اشتملت عليه من العبر .

الصنفان المبطلان :

وقوله تعالى : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَو كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ﴾ ذكر الصنفين المبطلين .

أحدهما : منشئ الباطل والفرية وواضعها وداعي الناس إليها .

والثاني : مكذب بالحق .

فالأول : كفره بالافتراء وإنشاء الباطل .

والثاني : كفره بجحود الحق .

وهذان النوعان يعرضان لكل مبطل . فإن انضاف إلى ذلك دعوته إلى باطله وصد الناس عن الحق استحق تضعيف العذاب لكفره وشره .

ولهذا قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴾ [النحل : ٨٨] فلما كفروا وصدوا عباده عن سبيله عذبهم عذابين : عذاباً بصدهم عن سبيله .

وحيث يذكر الكفر المجرد لا يعدد العذاب .

كقوله تعالى : ﴿ والْكَافِرِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾(٣٣) .

وقوله تعالى ﴿ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ يعنى ينالهم ما كتب لهم فى الدنيا من الحياة والرزق وغيرذلك .

﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا ﴾ زالوا وفارقوا وبطلت تلك الدعوة ﴿ وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ . قَالَ ادْخُلُوا فِى أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ والإِنْسِ فِى النَّارِ ﴾ ادخلوا فى جملة هذه الأمم ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعاً قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاَهُمْ ﴾ كل أمة متأخرة لأسلافها ﴿ ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار ﴾ ضاعفه عليهم بما أضلونا وصدونا عن طاعة رسلك ، قال الله تعالى ﴿ لكل ضعف ﴾ من الأتباع والمتبوعين بحسب ضلاله وكفره ﴿ ولكن لا تعلمون ﴾ لا تعلم كل طائفة بما فيه أختها من العذاب المضاعف .

﴿ وَقَالَتْ أُولاَهُم لأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ ﴾ فإنكم جئتم بعدنا فأرسلت فيكم الرسل وبينوا لكم الحق وحذروكم من ضلالنا ونهوكم عن اتباعنا وتقليدنا ، فأبيتم إلا اتباعنا وتقليدنا ، وترك الحق الذى أتتكم به الرسل . فأى فضل كان لكم علينا ، وقد ضللتم كما ضللنا ، وتركتم الحق كما تركنا ، فضللتم أنتم بنا كما ضللنا نحن بقوم آخرين . فأى فضل كان لكم علينا ؟

﴿ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ فلله ما أشفاها من موعظة وما أبلغها من نصيحة ، لو صادفت من القلوب حياة . فإن هذه الآية وأمثالها ، مما يذكر قلوب السائرين إلى

---

(٣٣) لا توجد آية فى كتاب الله بنفس النص والصحيح من كتاب الله تعالى قوله (وللكافرين عذاب أليم) « البقرة / ١٠٤ »

الله ، وأما أهل البطالة فليس عندهم من ذلك خبر .

فصــــل

معركة الأتباع والمتبوعين

فهذا حكم الأتباع والمتبوعين المشركين فى الضلالة .

وأما الأتباع المخالفون لمتبوعهم ، العادلون عن طريقتهم الذين يزعمون أنهم لهم تبع وليسوا متبعين لطريقتهم ، فهم المذكورون فى قوله تعالى : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ . وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ [البقرة : ١٦٦ ، ١٦٧] .

فهؤلاء المتبوعون كانوا على هدى ، وأتباعهم ادعوا أنهم كانوا على طريقتهم ومنهاجهم ، وهم مخالفون لهم سالكون غير طريقتهم ، يزعمون أنهم يحبونهم ، وأن محبتهم لهم تنفعهم مع مخالفتهم ، فيتبرءون منهم يوم القيامة ، فإنهم اتخذوهم أولياء من دون الله وظنوا أن هذا الاتخاذ ينفعهم .

● وهذه حال كل من اتخذ من دون الله ورسوله وليجة وأولياء ، يوالى لهم ويعادى لهم ، ويرضى ويغضب لهم ، فإن أعماله ، كلها باطلة يراها يوم القيامة حسرات عليه مع كثرتها وشدة تعبه فيها ونصبه ، إذ لم يجرد موالاته ومعاداته ، ومحبته وبغضه ، وانتصاره وإيثاره لله ورسوله ، فأبطل الله عزوجل ذلك العمل كله وقطع تلك الأسباب ، فينقطع يوم القيامة كل وصلة ووسيلة ومودة ، وموالاة كانت لغير الله تعالى ، ولا يبقى إلا السبب الواصل بين العبد وربه ، وهو حظه من الهجرة إليه وإلى رسوله ، وتجريد عبادته له وحده ولوازمها من الحب والبغض ، والعطاء والمنع ، والموالاة والمعاداة والتقريب والإبعاد ، وتجريده متابعة رسوله وترك أقوال غيره ، وترك ما خالف ما جاء به ، والإعراض عنه وعدم الاعتناء به ، وتجريد متابعته تجريداً محضاً بريئاً من شوائب الالتفات إلى غيره ، فضلا عن الشركة بينه وبين غيره ، فضلا عن تقديم قول غيره عليه .

● فهذا هو السبب الذى لا ينقطع بصاحبه ، وهذه هى النسبة التى بين العبد وبين ربه ، وهى نسبة العبودية المحضة ، وهى آخيته[٣٤] التى يحول ما يحول ثم إليها مرجعه .

---

(٣٤) الآخية ، بالمد والتشديد ، واحدة الأواخى : وهو عود يعرض فى الحائط ويدفن طرفاه فيه ويصير وسطه كالعروة تشد إليه الدابة ؛ =

نقــل فــؤادك حيث شئت من الهــوى
مـــــــــــا الحب إلا للحبيب الاول
كم منزل فى الأرض يــــألفــــه الفتى
وحنينـــــــــه أبـــــــــداً لأول منزل

وهذه هى النسبة التى تنفع العبد ، فلا ينفعه غيرها فى الـدور الثلاثـة : أعنى دار الـدنيـا ، ودار البرزخ ، ودار القرار ، فلا قـوام لـه ، ولا عيش ، ولا نعيم ، ولا فـلاح إلا بهـذه النسبـة . وهى السبب الواصل بين العبد وبين الله ، ولقد أحسن القائل :

إذا تقطــع حبــل الــوصــل بينهم
فللمحبين حبـــــــل غير منقطـــــــع
وإن تصـــدع شمــل القـــوم بينهم
فللمحبين شمـــــــل غير منصـــــــدع

● والمقصود أن الله سبحانـه يقطع يوم القيـامـة الأسبـاب والعلق والوصلات التى كانت بين الخلق فى الدنيا كلها ، ولا يبقى إلا السبب والوصلة التى بين العبـد وبين الله فقـط ، وهو سبب العبودية المحضة التى لا وجود لها ولا تحقيق بتجريد متابعـة الرسل صلوات الله وسلامـه عليهم ، إذ هذه العبودية إنما جـاءت على ألسنتهم ، ومـا عرفت إلا بهم ، ولا سبيـل إليهـا إلا بمتـابعتهم . وقد قال تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ [الفرقان : ٢٣] .

● فهذه هى أعماله التى كانت فى الدنيا على غير سنة رسله وطريقتهم ولغير وجهه ، يجعلهـا الله هباءاً منثوراً . ولا ينتفع منها صـاحبهـا بشىء أصلا ؛ وهـذا من أعظم الحسرات على العبـد يوم القيامة : أن يرى سعيه كلـه ضـائعـاً لم ينتفع منـه بشىء ، وهو أحوج مـا كان العـامل إلى عمله ، وقد سعد أهل السعى النافع بسعيهم .

فصــــل

الأتبـاع السعـداء

● فهذا حكم أتباع الأشقياء ، فأما أتباع السعداء فنوعان :

= قال ابو منصور : سمعت بعض العرب يقول للحبل الذى يـدفن فى الأرض مثنيـاً ويبرز طرفـاه الآخران شبـه حلقـه وتشد به الدابة آخِيّة .

(لسان العرب - مادة أخا - ١٤ / ٢٣)

أتباع لهم حكم الاستقلال وهم الذى قال الله عز وجل فيهم : ﴿ والسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِىَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ [التوبة : ١٠٠] .

فهؤلاء هم السعداء الذين ثبت لهم رضا الله عنهم ، وهم أصحاب رسول الله ﷺ وكل من تبعهم بإحسان إلى يوم القيامة . ولا يختص ذلك بالقرن الذين رأوهم فقط ، وإنما خص التابعين بمن رأوا الصحابة تخصيصاً عرفياً ليتميزوا به عمن بعدهم فقيل : التابعون مطلقاً لذلك القرن فقط ، وإلا فكل من سلك سبيلهم فهو من التابعين لهم بإحسان ، وهو ممن رضى الله عنهم ورضوا عنه .

الإحسان فى التبعية :

● وقيد سبحانه هذه التبعية بأنها تبعية بإحسان ليست مطلقة فتحصل بمجرد النية والاتباع فى شىء والمخالفة فى غيره ، ولكن تبعية مصاحبة الإحسان .

وأن الباء هاهنا للمصاحبة .

والإحسان والمتابعة شرط فى حصول رضاء الله عنهم وجناته .

وقد قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِى ضَلَالٍ مُبِينٍ . وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ واللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [الجمعة : ٢ - ٤] .

● **فالأولون :** هم الذين أدركوا رسول الله ﷺ وصحبوه .

والآخرون : هم الذين لم يلحقوهم ، وهم كل من بعدهم على منهاجهم إلى يوم القيامة ، فيكون التأخر وعدم اللحاق فى الفضل والرتبة ، بل هم دونهم فيكون عدم اللحاق فى الرتبة ، والقولان كالمتلازمين ، فإن من بعدهم لا يلحقون بهم لا فى الفضل ولا فى الزمان ، فهؤلاء الصنفان هم السعداء .

وأما من لم يقبل هدى الله الذى بعث به رسوله ولم يرفع به رأساً فهو من الصنف الثالث وهم : ﴿ مَثَلُ الذينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً ﴾ [الجمعة : ٥] .

● وقد ذكر النبي ﷺ أقسام الخلائق بالنسبة إلى دعوته وما بعث به من الهدى في قوله ﷺ « مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وكانت منها أجادب أمسكت الماء فسقى الناس وزرعوا ، وأصاب طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ . فذلك مثل من فقه في الدين فنفعه ما بعثني الله به ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به »[٣٥]

الغيث والعلم :

● فشبه ﷺ العلم الذى جاء به بالغيث لأن كلا منهما سبب الحياة ، فالغيث سبب حياة الأبدان ، والعلم سبب حياة القلوب .

وشبه القلوب بالأودية كما في قوله تعالى : ﴿ أنزلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءاً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا ﴾ [الرعد : ١٧] .

الأرض والغيث :

● وكما أن الأرضين بالنسبة إلى قبول الغيث .

إحداهما : أرض زكية قابلة للشراب والنبات ، فإذا أصابها الغيث ارتوت ومنه يثمر النبت من كل زوج بهيج .

فذلك مثل القلب الزكى الذكى[٣٦] ، فهو يقبل العلم بذكائه ، فيثمر فيه وجوه الحكم ودين الحق بزكائه ، فهو قابل للعلم ، مثمر لموجبه وفقهه وأسرار معادنه .

والثانية : أرض صلبة قابلة لثبوت ما فيها وحفظه ، فهذه تنفع الناس لورودها والسقى منها والازدراع .

وهو مثل القلب الحافظ للعلم الذى يحفظه كما سمعه ، فلا تصرف فيه ، ولا استنبط ، بل للحفظ المجرد فهو يؤدى كما سمع ، وهو من القسم الذى قال فيه النبي ﷺ : « فرُبَّ حامل فقه

(٣٥) أخرجه البخارى فى كتاب « العلم » باب « فضل من عِلمَ وَعَلَّمَ » (حـ ١ / ٧٩ / فتح) ومسلم فى كتاب « الفضائل » باب « بيان مثل ما بعث النبي ﷺ من الهدى والعلم » (حـ ٤ / ١٥ / ح ٢٢٨٢ / ص ١٧٨٧) من حديث ابى موسى

واحمد فى « مسنده » (٤ / ٣٩٩) من حديث ابى موسى الأشعرى ..

(٣٦) الزكى الذكى : الصالح سريع الفطنة .

إلى من هو أفقه ، ورب حامل فقه غير فقيه »[٣٧] .

فالأول : كمثل الغنى التاجر الخبير بوجوه المكاسب والتجارات فهو يكسب بماله ما شاء .

والثانى : مثل الغنى الذى لا خبرة له بوجوه الربح والمكسب ، ولكنه حافظ لما لا يحسن التصرف والتقلب فيه .

والأرض الثالثة : أرض قاع ، وهو المستوى الذى لا يقبل النبات ، ولا يمسك ماء ، فلو أصابها من المطر ما أصابها لم تنتفع منه بشىء .

فهذا مثل القلب الذى لا يقبل العلم والفقه والدراية ، وإنما هو بمنزلة الأرض البوار التى لا تنبت ولا تحفظ ، وهو مثل الفقير الذى لا مال له ، ولا يحسن يمسك مالا .

فالأول : عالم معلم ، وداع إلى الله على بصيرة ، فهذا من ورثة الرسل .

والثانى : حافظ مؤد لما سمعه ، فهذا يحمل لغيره ما يتجر به المحمول إليه ويستثمر .

والثالث : لا هذا ولا هذا ، فهو الذى لم يقبل هدى الله ، ولم يرفع به رأساً .

فاستوعب هذا الحديث أقسام الخلق فى الدعوة النبوية ومنازلهم . منها قسمان : قسم سعيد وقسم شقى .

فصـــل

أطفـال المـؤمنيـن

● وأما النوع الثانى من الأتباع : فهم أتباع المؤمنين من ذريتهم الذين لم يثبت لهم حكم التكليف فى دار الدنيا ، وإنما هم مع آبائهم تبع لهم .

وقال الله تعالى فيهم : ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ** ﴾ [الطور : ٢١] .

---

(٣٧) أخرجه ابو داود فى كتاب « العلم » باب « فضل نشر العلم » (حـ ٣ / ح ٣٦٦٠) من حديث زيد بن ثابت ، والترمذى (حـ ٥ / ح ٢٦٥٦) وقال ابو عيسى : حديث زيد بن ثابت حديث حسن . ، وابن ماجه (١ / ٢٣١) ، (٢ / ٣٠٥٦) والدارمى (حـ ١ / ح ٢٢٨ / ريان) من حديث جبير بن مطعم .

وذكره الالبانى فى « صحيح الجامع » برقم (٦٧٦٥) ، (٦٧٦٦) وقال : صحيح ولفظ الحديث (نضر الله امرأ سمع منا حديثا فحفظه حتى يبلغه فرب حامل فقه إلى من هوافقه منه ، ورب حامل فقه ليس بفقيه) اللفظ لابى داود من حديث زيد بن ثابت ..

● أخبر سبحانه أنه ألحق الذرية بآبائهم فى الجنة كما أتبعهم إياهم فى الإيمان .

ولما كان الذرية لا عمل لهم يستحقون به تلك الدرجات قال تعالى : ﴿ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَىْءٍ ﴾ [الطور : ٢١] .

والضمير عائد إلى الذين آمنوا .

أى وما نقصناهم من عملهم بل رفعنا ذريتهم إلى درجتهم مع توفيتهم أجور أعمالهم ؛ فليست منزلتهم منزلة من لم يكن له عمل ، بل وفيناهم أجورهم فألحقنا بهم ذريتهم فوق ما يستحقون من أعمالهم .

● ثم لما كان هذا الإلحاق فى الثواب والدرجات فضلا من الله ، فربما وقع فى الوهم أن إلحاق الذرية أيضاً حاصل لهم فى حكم العدل ، فلما اكتسبوا سيئات أوجبت عقوبة ، كان كل عامل رهيناً بكسبه لا يتعلق بغيره شيء . فالإلحاق المذكور إنما هو فى الفضل والثواب لا فى العدل والعقاب ، وهذا نوع من أسرار القرآن وكنوزه التى يختص الله بفهمها من شاء .

● فقد تضمنت هذه الآية أقسام الخلائق كلهم : أشقيائهم وسعدائهم .

السعداء المتبوعين والأتباع .
والأشقياء المتبوعين والأتباع .

فعلى العاقل الناصح لنفسه أن ينظر فى أى الأقسام هو ، ولا يغتر بالعادة ويخلد إلى البطالة ، فإن كان من قسم سعيد انتقل إلى ما هو فوقه وبذل جهده ، والله ولى التوفيق والنجاح . وإن كان من قسم شقى انتقل منه إلى القسم السعيد فى زمن الإمكان قبل أن يقول : ﴿ ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا ﴾(٣٨) .

فصل

سفر الهجرة

● والمقصود بهذا أن من أعظم التعاون على البر والتقوى التعاون على سفر الهجرة إلى الله والرسول باليد واللسان والقلب والمساعدة والنصيحة تعليما وإرشاداً ومودة .

ومن كان هكذا مع عباد الله فكل خير إليه أسرع ، وأقبل الله إليه بقلوب عباده ، وفتح

---

(٣٨) الفرقان / ٢٧

على قلبه أبواب العلم ، وييسره لليسرى .

ومن كان بالضد فبالضد .

زاد المسافر :

● فإن قلت : قد أشرت إلى سفر عظيم وأمر جسيم ، فما زاد هذا السفر وما طريقه وما مركبه ؟

قلت : زاده العلم الموروث من خاتم الأنبياء ﷺ ولا زاد له سواه ، فمن لم يحصل هذا الزاد فلا يخرج من بيته وليقعد مع الخالفين .

فرفقاء المتخلف البطالون أكثر من أن يحصلوا ، فله أسوة بهم ، ولن ينفعه هذا التأسى يوم الحسرة شيئاً كما قال تعالى : ﴿ وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ [الزخرف : ٣٩] فقطع الله سبحانه انتفاعهم بتأسى بعضهم ببعض فى العذاب ، فإن مصائب الدنيا إذا عمّت صارت مسلاة ، وتأسى بعض المصابين ببعض كما قالت الخنساء(٣٩) :

ولولا كثرة الباكين حولى ... على إخوانهم لقتلت نفسى
وما يبكون مثل أخى ولكن ... أُسلى النفس عنه بالتأسى

فهذا الروح الحاصل من التأسى معدوم بين المشتركين فى العذاب يوم القيامة .

طريق السفر :

● وأما طريقه : فهو بذل الجهد واستفراغ الوسع ، فلا يُنال بالمنى ، ولن يدركَ بالهوينا ، وإنما هو كما قيل :

فخض غمرات الموت واسمُ إلى العلا ... لكى تدرك العز الرفيع الدائم
فلا خير فى نفس تخاف من الردى ... ولا همة تصبو إلى لوم لائم

ولا سبيل إلى ركوب هذا الظهر إلا بأمرين :

(٣٩) الخنساء : هى تماضر بنت عمرو بن الشريد وهى جاهلية كانت تقول الشعر فى زمن النابغة الذبيانى – انشدته شعراً فقال لها : والله لولا أن ابا بصير انشدنى (آنفاً) لقلت إنك اشعر الجن والإنس .
قدمت على رسول الله ﷺ مع قومها فاسلمت معهم . شهدت القادسية ومعها اربعة بنين لها . وهى القائله حينما اخبرت باستشهادهم جميعاً الحمدلله الذى شرفنى بقتلهم وأرجو من ربى ان يجمعنى بهم فى مستقر رحمته .
(الشعر والشعراء / ٢١٣ ، اسد الغابه ٧ / ٨٨)

أحدهما : أن لا يصبو فى الحق إلى لوم لائم ، فإن اللوم يصيب الفارس فيصرعه عن فرسه ، ويجعله صريعاً فى الأرض .

والثانى : أن تهون عليه نفسه فى الله ؛ فيقدم حينئذ ولا يخاف الأهوال ، فمتى خافت النفس تأخرت وأحجمت وأخلدت إلى الأرض ، ولا يتم له هذان الأمران إلا بالصبر ، فمن صبر قليلا صارت تلك الأهوال ريحاً رخاء فى حقه تحمله بنفسها إلى مطلوبه ، فبينما هو يخاف منها ، إذ صارت أعظم أعوانه وخدمه ، وهذا أمر لا يعرفه إلا من دخل فيه .

مركب المسافر :

● وأما مركبه فصدق اللجأ إلى الله والانقطاع إليه بكليته ، وتحقيق الافتقار إليه بكل وجه ، والضراعة إليه وصدق التوكل والاستعانة به ، والانطراح بين يديه انطراح المسلوم المكسور الفارغ الذى لا شىء عنده ، فهو يتطلع إلى قيّمه ووليه أن يجدّه ويلم شعثه ، ويمده من فضله ويستره ، فهذا الذى يرجى له أن يتولى الله هدايته ، وأن يكشف له ما خفى على غيره من طريق هذه الهجرة ومنازلها .

فصل

التدبر والتفكر فى آلاء الله

● ورأس الأمر وعموده فى ذلك ، إنما هو دوام التفكر وتدبر آيات الله ، حيث تستولى على الفكر وتشغل القلب . فإذا صارت معانى القرآن مكان الخواطر من قلبه وجلس على كرسيه ، وصار له التصرف ، وصار هو الأمير المطاع أمره ، فحينئذ يستقيم له سيره ، ويتضح له الطريق ، وتراه ساكناً وهو يبارى الريح ﴿ **وترى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللهِ الَّذِى أَتْقَنَ كُلَّ شَىْء إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ** ﴾ [النمل : ٨٨] .

فصل

أفلا يتدبرون القرآن ؟

● فإن قلت : إنك قد أشرت إلى مقام عظيم فافتح لى بابه ، واكشف لى حجابه ، وكيف تدبر القرآن وتفهمه والإشراف على عجائبه وكنوزه ؟ وهذه تفاسير لأئمة بأيدينا فهل فى البيان غير ما ذكروه ؟

قلت : سأضرب لك أمثالا تحتذى عليها وتجعلها إماماً لك فى هذا المقصد .

قال الله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ . إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا ، قَالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ . فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ . فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلا تَأْكُلُونَ . فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لاَ تَخَفْ وَبَشَّرُوه بِغُلامٍ عَلِيمٍ . فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ . قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾ [الذاريات : ٢٤ - ٣٠] .

فعهدى بك إذا قرأت هذه الآية وتطلعت إلى معناها وتدبرتها . فإنما تطلع منها على أن الملائكة أتوا إبراهيم فى صورة الأضياف يأكلون ويشربون وبشروه بغلام عليم ، وإنما امرأته عجبت من ذلك ، فأخبرتها الملائكة أن الله قال ذلك - ولم يتجاوز تدبرك غير ذلك .

● فاسمع الآن بعض مافى هذه الآيات من أنواع الأسرار .

وكم قد تضمنت من الثناء على إبراهيم .

وكيف جمعت الضيافة وحقوقها .

وما تضمنت من الرد على أهل الباطل من الفلاسفة والمعطلة .

وكيف تضمنت علماً عظيما من أعلام النبوة .

وكيف تضمنت جميع صفات الكمال التى ردها إلى العلم والحكمة

وكيف أشارت إلى دليل إمكان المعاد بألطف إشارة وأوضحها ، ثم أفصحت وقوعه .

وكيف تضمنت الإخبار عن عدل الرب وانتقامه من الأمم المكذبة .

وتضمنت ذكر الإسلام والإيمان والفرق بينهما .

وتضمنت بقاء آيات الرب الدالة على توحيده وصدق رسله ، وعلى اليوم الآخر .

وتضمنت أنه لا ينتفع بهذا كله إلا من فى قلبه خوف من عذاب الآخرة ، وهم المؤمنون بها .

وأما من لا يخاف الآخرة ولا يؤمن بها فلا ينتفع بتلك الآيات .

● فاسمع الآن بعض تفاصيل هذه الجملة :

قال الله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ .

افتتح سبحانه القصة بصيغة موضوعة للاستفهام ، وليس المراد بها حقيقة الاستفهام ، ولهذا قال بعض الناس : إن (هل) فى مثل هذا الموضع بمعنى (قد) التى تقتضى التحقيق . ولكن فى ورود الكلام فى مثل هذا بصيغة الاستفهام سر لطيف ، ومعنى بديع ، فإن المتكلم إذا أراد أن

يخبر المخاطب بأمر عجيب ينبغى الاعتناء به ، وإحضار الذهن له ، صدر له الكلام بأداة الاستفهام ، لتنبيه سمعه وذهنه للمخبر به ، فتارة يصدره بألا ، وتارة يصدره بهل ، فتقول : هل علمت ما كان من كيت وكيت ؟ إما مذكراً به ، وإما واعظاً له مخوفاً ، وإما منبهاً على عظمة ما يخبر به ، وإما مقرراً له .

فقوله تعالى : ﴿ وهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴾ [طه : ٩] و ﴿ هَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الخَصْمِ ﴾ [ص : ٢١] و ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الغَاشِيَةِ ﴾ [الغاشية : ١] و ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ المُكْرَمِينَ ﴾ [الذاريات : ٢٤] متضمن لتعظيم هذه القصص والتنبيه على تدبرها ومعرفتها ما تضمنته .

ففيه أمر آخر .

وهو التنبيه على أن إتيان هذا إليك علم من أعلام النبوة ، فإنه من الغيب الذى لا تعلمه أنت ولا قومك . فهل أتاك من غير إعلامنا وإرسالنا وتعريفنا ؟ أم لم يأتك إلا من قبلنا ؟

فانظر ظهور هذا الكلام بصيغة الاستفهام ، وتأمل عظم موقعه من جميع موارده يشهد أنه من الفصاحة فى ذروتها العليا .

وقوله : ﴿ ضيف إبراهيم المكرمين ﴾ متضمن لثنائه على خليله إبرهيم فإن فى ﴿ المكرمين ﴾ قولين :

أحدهما : إكرام إبراهيم لهم ، ففيه مدح إبراهيم بإكرام الضيف .

والثانى : أنهم مكرمون عند الله كقوله تعالى : ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴾ وهو متضمن أيضاً لتعظيم خليله ومدحه ؛ إذ جعل ملائكته المكرمين أضيافاً له ، فعلى كلا التقديرين فيه مدح لإبراهيم .

وقوله ﴿ فَقَالُوا سَلاَماً قَالَ سَلاَمٌ ﴾ متضمن بمدح آخر لإبراهيم حيث رد عليهم السلام أحسن مما حيوه به ، فإن تحيتهم باسم منصوب متضمن لجملة فعلية تقديره : سلمنا عليك سلاماً . وتحية إبراهيم لهم باسم مرفوع متضمن لجملة اسمية تقديره : سلام دائم أو ثابت أو مستقر عليكم ، ولا ريب أن الجملة الاسمية تقتضى الثبوت واللزوم ، والفعلية تقتضى التجدد والحدوث ، فكانت تحية إبراهيم أكمل وأحسن .

ثم قال ﴿ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴾ وفى هذا من حسن مخاطبة الضيف والتذمم منه وجهان

فى المـدح

أحدهما : أنه حـذف المبتـدأ والتقـدير : أنتم قوم منكرون ، فتـذمم منهم ولم يواجههم بهـذا الخطاب لما فيه من بعض الاستيحاش .

وكان النبي ﷺ لا يواجه أحداً بما يكرهه بل يقول « مـا بـال أقوام يقولون كـذا ويفعلون كذا »[٤٠] .

(الثانى) قوله (قوم منكرون) فحـذف فـاعل الإنكار وهو الـذى كان أنكرهم كما قـال فى موضع آخر (نكرهم)[٤١] ولا ريب أن قوله (منكرون) ألطف من أن يقول أنكرتم .

وقوله : ﴿ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِـهِ فَجَـاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ . فَقَرَّبَـهُ إِلَيْهِمْ قَـالَ أَلاَ تَـأْكُلُونَ ﴾ متضمن وجوهاً من المدح وآداب الضيافة وإكرام الضيـف .

منهـا قولـه : ﴿ فَراغَ إِلَى أَهْلِـهِ ﴾ والروغـان الـذهـاب بسرعـة واختفـاء . وهـو يتضمن المبادرة إلى إكرام الضيـف ، والاختفاء يتضمن ترك تخجيله وألا يعرض للحيـاء وهـذا بخلاف من يتثاقل ويتبارد على ضيفه ثم يبرز بمرأى منـه ويحل صرة النفقـة ويزن مـا يـأخـذ ؛ ويتنـاول الإناء بمرأى منه ونحو ذلـك مما يتضمن تخجيل الضيف وحيـائـه ، فلفظـة (راغ) تنفى هـذين الأمرين . وفى قوله تعالى : ﴿ إلى أهله ﴾ مـدح آخر لمـا فيـه من الإشعـار أن كرامـة الضيف معدة حاصلة عند أهله ، وأنه لا يحتاج أن يستقرض من جيرانـه ، ولا يـذهب إلى غير أهلـه إذ قرى الضيف حاصل عندهم .

وقوله ﴿ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾ يتضمن ثلاثة أنواع من المدح :

أحدها : خدمة ضيفه بنفسه ، فإنه لم يرسل به ، وإنما جاء به بنفسه .

الثانى : أنه جاءهم بحيوان تام لم يأتهم ببعضه ، ليتخيروا من أطيب لحمه ما شاءوا .

الثـالث : أنـه سمين ليس بمهـزول ، وهـذا من نفـائس الأمـوال ، ولـد البقر السمين فـإنهم

---

(٤٠) (قلت) وردت هذه الجملة عند مسلم والنسائى فى حديث الثلاثة الذين جاءوا يسألوا عن عبادة النبى ﷺ ... الحديث أخرجه مسلم فى كتاب « النكاح » باب « استحباب النكاح لمن تاقت نفسه اليه » (جـ ٢ / ٥ / ح ١٤٠١ / ص ١٠٢٠) من حديث أنس ، والنسائى (٦ / ٦٠) وابن حبان فى « صحيحه » (١ / ١٤ / ١٠٨) من حديث أنس ايضاً وجاء عند البيهقى فى « شعب الايمان » (٦ / ٨٠٩٩) من حديث عائشة بلفظ « كان النبى ﷺ اذا بلغه عن الرجل الشئ لم يقل ما بال فلان يقول : كذا ولكن يقول : « ما بال اقوام يقولون كذا وكذا » .

(٤١) (قلت) هذه اللفظة جاءت فى سورة « هود الاية رقم (٧٠) فى قول الله عز وجل « فلمّا رءا أيديهم لا تصلُ إليه نكرهُمْ وأوجس منهُمْ خيفةً قالوا لا تخفْ إنّا أُرسلنا إلى قوْم لُوط » .

يعجبون به . فمن كرمه هان عليه ذبحه وإحضاره .

وقوله **إليهم** متضمن المدح وآداباً أخرى وهو إحضار الطعام بين يدى الضيف ، بخلاف من يهيء الطعام فى موضع ثم يقيم ضيفه فيورده عليه .

وقوله **ألا تأكلون** ؟ فيه مدح وآداب أخر : فإنه عرض عليهم الأكل بقوله **ألا تأكلون** ؟ وهذه صيغة عرض مؤذنة بالتلطف ، بخلاف من يقول : ضعوا أيديكم فى الطعام ، كلوا ، تقدموا ، ونحو هذا .

وقوله **فأوجس منهم خيفة** لأنه لما رآهم لا يأكلون من طعامه أضمر منهم خوفاً أن يكون معهم شر ، فإن الضيف إذا أكل من طعام رب المنزل اطمأن إليه وأنس به ، فلما علموا منه ذلك ﴿ **قَالُوا لاَ تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلاَمٍ عَلِيمٍ** ﴾ وهذا الغلام إسحق لا إسماعيل ، لأن امرأته عجبت من ذلك فقالت : عجوز عقيم لا يولد لمثلى ، فأنى لى بالولد ؟ وأما إسماعيل فإنه من سريته هاجر وكان بكره وأول ولده . وقد بين سبحانه هذا فى سورة هود فى قوله تعالى : ﴿ **فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحٰقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحٰقَ يعقوب** ﴾ [هود : ٧١] وهذه هى القصة نفسها .

وقوله تعالى : ﴿ **فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا** ﴾ فيه بيان ضعف عقل المرأة وعدم ثباتها ، إذ بادرت إلى الندبة فصكت الوجه عند هذا الإخبار .

وقوله ﴿ **عجوز عقيم** ﴾ فيه حسن أدب المرأة عند خطاب الرجال واقتصارها من الكلام على ما يتأدى به الحاجة ، فإنها حذفت المبتدأ ولم تقل أنا عجوز عقيم ، واقتصرت على ذكر السبب الدال على عدم الولادة لم تذكر غيره ، وأما فى سورة هود ، فذكرت السبب المانع منها ومن إبراهيم وصرحت بالعجب[٤٢] .

وقوله تعالى : ﴿ **قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ** ﴾ : متضمن لإثبات صفة القول له .

وقوله ﴿ **إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ** ﴾ متضمن لإثبات صفة الحكمة والعلم اللذين هما مصدر الخلق والأمر ، فجميع ما خلقه سبحانه صادر عن علمه وحكمته ، وكذلك أمره وشرعه مصدره عن علمه وحكمته .

والعلم والحكمة متضمنان لجميع صفات الكمال ، فالعلم يتضمن الحياة ولوازم كمالها من القيومية

---

(٤٢) وهو قول الله تعالى « قالت يا ويلتى ءألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا إن هذا لشىء عجيب . قالوا أتعجبين من أمر الله رحمت الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد »

سورة هود / ٧٢ ، ٧٣

والقدرة والبقاء والسمع والبصر ، وسائر الصفات التى يستلزمها العلم التام .

والحكمة تتضمن كمال الإرادة والعدل والرحمة والإحسان والجود والبر ، ووضع الأشياء فى مواضعها على أحسن وجوهها ، ويتضمن إرسال وإثبات الثواب والعقاب .

كل هذا العلم من اسمه الحكيم كما هى طريقه القرآن فى الاستدلال على هذه المطالب العظيمة بصفة الحكمة : والإنكار على من يزعم أنه خلق الخلق عبثاً وسدى وباطلا ، فحينئذ صفة حكمته تتضمن الشرع والقدر والثواب والعقاب ، ولهذا كان أصح القولين أن المعاد يعلم بالعقل ، وأن السمع ورد بتفصيل ما يدل العقل على إثباته .

ومن تأمل طريقة القرآن وجدها دالة على ذلك ، وأنه سبحانه يضرب لهم الأمثال المعقولة التى تدل على إمكان المعاد تارة ووقوعه أخرى ، فيذكر أدلة القدرة الدالة على إمكان المعاد وأدلة الحكمة المستلزمة لوقوعه .

ومن تأمل أدلة المعاد فى القرآن وجدها كذلك مغنية بحمد الله عن غيرها ، كافية شافية موصلة إلى المطلوب بسرعة . متضمنة للجواب عن الشبه العارضة لكثير من الناس .

وإن ساعد التوفيق كتبت فى ذلك سفراً كبيراً ، لما رأيت فى الأدلة التى أرشد إليها القران من الشفاء والهدى وسرعة الإنصاف ، وحسن البيان ، والتنبيه على مواضع الشبه والجواب عنها بما يثلج له الصدر ؛ ويكثر معه اليقين ، بخلاف غيره من الأدلة ، فإنها على العكس من ذلك وليس هذا موضع التفصيل .

● والمقصود أن صدور الخلق والأمر عن علم الرب وحكمته . واختصت هذه القصة بذكر هذين الاسمين لاقتضائها لتعجب النفوس من تولد مولود بين أبوين لا يولد لمثلها عادة ، وخفاء العلم بسبب هذا الإيلاد ، وكون الحكمة اقتضت جريان هذه الولادة على غير العادة المعروفة . فذكر فى الآية اسم العلم والحكمة المتضمن لعامه سبحانه بسبب هذا الخلق وغايته وحكمته فى وضعه موضعه من غير إخلال بموجب الحكمة .

● ثم ذكر سبحانه وتعالى قصة الملائكة فى إرسالهم لهلاك قوم لوط ، وإرسال الحجارة المسومة عليهم . وفى هذا ما يتضمن تصديق رسله وإهلاك المكذبين لهم ،والدلالة على المعاد والثواب والعقاب لوقوعه عياناً فى هذا العالم ، وهذا من أعظم الأدلة الدالة على صدق رسله لصحة ما أخبروا به عن ربهم .

ثم قال تعالى : ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ

بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الذاريات : ٣٥ ، ٣٦] ففرق بين الإسلام والإيمان هنا لسر اقتضاه الكلام .

فإن الإخراج هنا عبارة عن النجاة ، فهو إخراج نجاة من العذاب ، ولا ريب أن هذا مختص بالمؤمنين المتبعين للرسل ظاهراً وباطناً .

وقوله تعالى : ﴿ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ لما كان الموجودون من المخرجين أوقع اسم الإسلام عليهم لأن امرأة لوط كانت من أهل هذا البيت وهى مسلمة فى الظاهر ، فكانت فى البيت بين الموجودين لا فى القوم الناجين ، وقد أخبر سبحانه عن خيانة امرأة لوط ، وخيانتها أنها كانت تدل قومها على أضيافه وقلبها معهم ، وليست خيانة فاحشة ، فكانت من أهل البيت المسلمين ظاهراً ، وليست من المؤمنين الناجين .

ومن وضع دلالة القرآن وألفاظه مواضعها ، تبين له من أسراره وحكمه ما يبهر العقول ، و بعلم أنه تنزيل من حكيم حميد .

وبهذا خرج الجواب عن السؤال المشهور وهو : إن الإسلام أعم من الإيمان فكيف استثناء الأعم من الأخص ، وقاعدة الاستثناء تقتضى العكس وتبين أن المسلمين المستثنين مما وقع عليه فعل الوجود ، والمؤمنين غير مستثنين منه ، بل هم المخرجون الناجون .

وقوله تعالى : ﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴾ فيه دليل على أن آيات الله سبحانه وعجائبه التى فعلها فى هذا العالم وأبقى آثارها دالة عليه وعلى صدق رسله ، إنما ينتفع بها من يؤمن بالمعاد ، ويخشى عذاب الله تعالى .

كما قال الله تعالى فى موضع آخر : ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ ﴾ [هود : ١٠٣]

وقال تعالى : ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى ﴾ [الأعلى : ١٠] فإن من لا يؤمن بالآخرة غايته أن يقول : هؤلاء قوم أصابهم الدهر كما أصاب غيرهم ، ولا زال الدهر فيه الشقاوة والسعادة .

وأما من آمن بالآخرة وأشفق منها فهو الذى ينتفع بالآيات والمواعظ .

والمقصود بهذا إنما هو التنبيه والتمثيل على تفاوت الأفهام فى معرفة القرآن واستنباط أسراره وآثار كنوزه ويعتبر بهذا غيره ، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء .

فصـــل

الرفيـق والطريـق

● والمقصود أن القلب لما تحول لهذا السفر طلب رفيقاً يأنس به فى السفر ، فلا يجد إلا معارضا مناقضًا ، أو لائماً بالتأنيب مصرحاً ، أو فارغاً من هذه الحركة معرضاً ، وليت كل ما ترى هكذا ، فلقد أحسن إليك من خلاك وطريقك ولم يطرح شره عليك ، كما قال القائل :

إنـــا لفى زمن ترك القبيـــح بـــه   من أكثر النـــاس إحســـان وإجمـــال

فإذا كان هذا المعروف من الناس . فالمطلوب فى هذا الزمان المعاونة على هذا السفر بالإعراض وترك الأئمة والاعتراض ، إلا ما عسى أن يقع نادراً فيكون غنيمة باردة لا قيمة لها .

ولا ينبغى أن لا يتوقف العبد فى سيره على هذه الغنيمة بل يسير ولو وحيداً غريباً ، فانفراد العبد فى طريق طلبه دليل على صدق المحبة .

● ومن نظر فى هذه الكلمات التى تضمنتها هذه الورقات ، علم أنها من أهم ما يحصل به التعاون على البر والتقوى ، وسفر الهجرة إلى الله ورسوله ، وهو الذى قصد سطرها بكتابتها وجعلها هديته المعجلة السابقة إلى أصحابه ورفقائه فى طلب العلم .

وشهد الله وكفى بالله شهيداً ، ولو توافى أحداً منهم لقابلها بالقبول ولبادر إلى تفهمها وعدّها من أفضل ما أهدى صاحب إلى صاحبه ، فإن غير هذا من جريانات الركب الخيرية ، وإن تطلعت النفوس إليها ففائدتها قليلة وهى فى غاية الرخص لكثرة جالبها ، وإنما الهدية النافعة كلمة يهديها الرجل إلى أخيه المسلم .

الموتى الأحياء ، والأحياء الموتى :

● ومن أراد هذا السفر فعليه بمرافقة الأموات الذين هم فى العالم أحياء ، فانه يبلغ بمرافقتهم إلى مقصده ، وليحذر من مرافقة لأحياء الذين هم فى الناس أموات ، فإنهم يقطعون عليه طريقه ، فليس لهذا السالك أنفع من تلك المرافقة ، وأوفق له من هذه المفارقة ، فقد قال بعض السلف : شتان بين أقوام موتى تحيا القلوب بذكرهم ، وبين أقوام أحياء تموت القلوب بمخالطتهم .

فما على العبد أضر من عشائره وأبناء جنسه ، فنظره قاصر وهمته واقفة عند التشبه بهم ومباهاتهم والسلوك أين سلكوا ، حتى لو دخلوا جحر ضب لأحب أن يدخله معهم .

● فمتى صرف همته عن صحبتهم إلى صحبة من أشباحهم مفقودة ومحاسنهم وآثارهم الجميلة فى العالم موجودة ، استحدث بذلك همة أخرى وعملا آخر ، وصار بين الناس غريبا، وإن كان فيهم مشهوراً ونسيباً ، ولكنه غريب محبوب ، يرى ما الناس فيه ولا يرون ما هو فيه ؛ يقيم لهم المعاذير ما استطاع ، ويحضهم بجهده وطاقته ، سائراً فيهم بعينين : عين ناظرة إلى الأمر والنهى . بها يأمرهم وينهاهم ويواليهم ويعاديهم ، ويؤدى لهم الحقوق ويستوفيها عليهم . وعين ناظرة إلى القضاء والقدر ، بها يرحمهم ويدعو لهم ويستغفر لهم ، ويلتمس وجوه المعاذير فيما لا يخل بأمر ولا يعود بنقض شرع ، وقد وسعهم بسطته ورحمته ولينه ومعذرته ، وقفاً عند قوله تعالى : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وأْمُرْ بالعُرْفِ وَأَعرِضْ عنِ الجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف : ١٩٩] متدبراً لما تضمنته هذه الآية من حسن المعاشرة مع الخلق وأداء حق الله فيهم والسلامة من شرهم . فلو أخذ الناس كلهم بهذه الآية لكفتهم وشفتهم ، فإن العفو ما عفى من أخلاقهم وسمحت به طبائعهم ووسعهم بذله من أموالهم وأخلاقهم .

● فهذا ما منهم إليه ، وأما ما يكون منه إليهم فأمرهم بالمعروف ، وهو ما تشهد به العقول وتعرف حسنه ، وهو ما أمر الله به . وأما ما يتقى به أذى جاهلهم فالإعراض عنه وترك الانتقام لنفسه والانتصار لها .

فأى كمال للعبد وراء هذا ؟ وأى معاشرة وسياسة لهذا العالم أحسن من هذه المعاشرة والسياسة ؟ فلو فكر الرجل فى كل شر يلحقه من العالم . أعنى الشر الحقيقى الذى لا يوجب له الرفعة والزلفى من الله – وجد سببه الإخلال بهذه الثلاث أو بعضها ، وإلا فمع القيام بها فكل ما يحصل له من الناس فهو خير له وإن شراً فى الظاهر ، فإنه يتولد من الأمر بالمعروف ولا يتولد منه إلا خيراً وإن ورد فى حالة شر وأذى .

كما قال الله تعالى : ﴿ إنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لاَتَحْسَبُوهُ شرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ [النور : ١١] .

وقال تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى الأَمْرِ ، فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ﴾ [ال عمران : ١٥٩] وقد تضمنت هذه الكلمات مراعاة حق الله وحق الخلق ، فإنهم إما أن يسيئوا فى حق الله أو فى حق رسوله ، فإن أساءوا فى حقك فقابل ذلك بعفوك عنهم ، وإن أساءوا فى حقى فاسألنى أغفر لهم وأستجلب قلوبهم ، وأستخرج ما عندهم من الرأى بمشاورتهم ، فإن ذلك الرأى فى استجلاب طاعتهم وبذل النصيحة ، فإذا عزمت فلا استشارة بعد ذلك ، بل توكل وامض لما عزمت عليه من أمرك ، فإن الله يحب المتوكلين .

● فهذا وأمثاله من الأخلاق التى أدب الله بها رسوله وقال تعالى فيه : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ٤] قالت عائشة رضى الله عنها « كان خُلُقُهُ الْقُرْآنَ »(٤٣) وهذا لا يتم إلا بثلاثة أشياء :

أحدها : أن يكون العود طيباً ، فأما إن كانت الطبيعة جافية غليظة يابسة عسر عليها مزاولة ذلك علماً وإرادة وعملا ، بخلاف الطبيعة المنقادة اللينة السلسة القياد ، فإنها مستعدة إنما تريد الحرث والبذر .

الثانى : أن تكون النفس قوية غالبة قاهرة لدواعى البطالة والغى والهوى ، فإن هذه الأمور تنافى الكمال ، فإن لم تقو النفس على قهرها وإلا لم تزل مغلوبة مقهورة .

الثالث : علم شاف بحقائق الأشياء وتنزيلها منازلها يميز بين التحم والورم ، والزجاجة والجوهرة .

فإذا اجتمعت فيه هذه الخصال الثلاث وساعد التوفيق فهو القسم الذى سبقت لهم من ربهم الحسنى ، وتمت له العناية .

والله سبحانه وتعالى أعلم .

وصلى الله على نبينا محمد وعلى اله وصحبه وسلم تسليما كثيراً أبداً إلى يوم الدين . والحمد لله رب العالمين .

* * * *

---

(٤٣) أخرجه مسلم من حديث طويل لابن عباس وفيه « يا أم المؤمنين أنبئينى عن خلق رسول الله ﷺ قالت ألست تقرأ القرآن » قلت بلى . قالت : فإن خلق نبى الله ﷺ كان القرآن . (انظر كتاب صلاة المسافرين (جـ ١ / ١٣٩ / ح ٧٤٦ / ص ٥١٢) وأبو داود (٢ / ١٣٤٢) والنسائى (٣ / ١٩٩) بلفظ مسلم والبيهقى فى « شعب الايمان » (جـ ٣ / ١٤٢٥ ، ١٤٢٦ ، ١٤٢٧) بألفاظ مختلفة من عدة طرق . والحاكم فى « المستدرك » (٢ / ٣٩٢) من حديث عائشة .

دليل الرسالة

الموضوع	الصفحة

المأمون للطباعة والتجليد ٣٥٤٤٥١٧ - ٣٥٤٤٣٥٦

رقم الإيداع ٣٣٩١ لسنة ١٩٩١